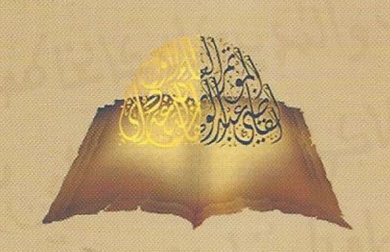






بحوث المؤتمر العلمي الأول
لدار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث

القاضي عبد الوهاب البغدادي المالكي
(شيخ المدرسة المالكية بالعراق (ت ٤٢٢هـ))
بمناسبة مضي ألف عام على وفاته

(٧)

منهجية التصنيف الأصولي السلوكي في التأليف الفقهي المالكي

أ. أحمد القطعاني
باحث في العلوم الإسلامية

بحوث المؤتمر محكمة
من ١٣ - ١٩ محرم ١٤٢٤هـ الموافق ١٦ - ٢٢ مارس ٢٠٠٣م بدبي
بحوث يوم الأربعاء ١٩ / ٣ / ٢٠٠٣م الجلسة الصباحية


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهــــــــــــــداء

إلى صفوة سَمْتها سمت الأنبياء ومعرفتها مغنم الفضلاء وكلامها قوت الأولياء وصحبتها نبراس الاهتداء وقربها إكسير الحكماء والبعد عنها حسرة النصحاء .

من عرفهم زهَّدوه في غيرهم فاشتاقهم عمره كله،ومن جهلهم فاته خيرهم بل الخير كله .

عبـقت بنشـر هواهمُ ريح الصبـا

وإلى شـذاهم كل قلب قـد صبـا

وتـضـرعـت أنفـاسـهم ولطالما

صمت اللسان بها فأصبح معربا

قـوم إذا نـزلوا بوادٍ مُـجـدب

قـفـر تأرج بالعـبـيـر وأعـشبـا

وإذا بدا البـحـر الأجـاج لشـارب

منهم يعـود من المدامـة أطيـبـا

فـاسلك طريقـهـمُ بصدق ياأخي

لتنـال من رب العبـــاد تقربـــا

مقدمة

أنعم الله سبحانه على أمة الإسلام بجهابذةٍ عظام جمعوا بين العلم والعمل أحيا قلوبهم بأسرار العلوم وزين قوالبهم بأنوار الأعمال والرسوم ووهب لهم من مطايا الفهم والفتح مايتوصلون به إلى مرضاة مولاهم الحي القيوم فنذروا أنفسهم للتفقه في دين الله وأحكام مرضاته .

فعمدوا إلى الشريعة الغراء يتدارسونها ويستنبطون أحكامها وإلى أوامر الله سبحانه ونواهيه يبينون حدودها ويظهرون أعلامها وبنودها غايتهم التي لا يحيدون عنها هي العلم والعمل وتعليم أحكام الدين وتصحيح العبادة وهو الأساس العظيم الذي زَلَّ قدمُ من أخطأه وهوى إلى قرار بهيم،فلا حلية للظاهر إلا بالتمسك بأوامر الشريعة الغراء ونواهيها،كما لا حلية للباطن إلا بمعاني الإيمان والإيقان والإخلاص تغمر الوجدان وتعمره .

فالعلاقة بين السلوك والفقه هي علاقة طبيعية لا مجال قط للخروج عنها .

ومن هنا كانت منهجية التصنيف السلوكي في الفقه المالكي ذات سمات واضحة محددة لا تخرج في مجملها عن السعي لخلق ذلك التكامل الخالد بين نصوص الفقه المجردة وما يجب أن يكون عليه المؤمن إبان تأديته مقتضيات هذه النصوص .

وسنحاول في هذا البحث جاهدين إبراز سمات منهجية التصنيف السلوكي في التأليف الفقهي المالكي التي وجدنا بعد الدراسة والتمحيص أنها لا تخرج عن إحدى عشر سمة عملنا بعناية على إيضاحها وجلائها لتبدو واضحة المعالم محددة الوصف والتوصيف ومن المنطقي أن تكون عدتنا في ذلك ما صنفه أقطاب فقهاء مدرسة السلوك المالكيين في هذا المجال نستشهد به ونحيل عليه ونجعله بينة على مانذهب إليه .

وفي محاولة منا لأن يكون هذا البحث شاملاً حرصنا على الترجمة لبعض الأعلام خصوصاً الشخصيات الأساسية فيه كابن أبي زيد صاحب الأصل موضحين الحقبة التاريخية العصيبة التي عاصرها والحالة السياسية التي كانت عليها القيروان موطنه إبان حكم الدولة العبيدية الشيعية،كما أظهرنا تلك الجذور القوية لرسالة ابن أبي زيد في مدرسة

السلوك،كما ترجمنا للقاضي عبد الوهاب الشارح أو لمن أخترنا أن تكون مصنفاتهم محور عملنا .

كما كان من الطبيعي بل الواجب الذي لا حيادة عنه أن نثبت في هذا البحث تلك العلاقة التي لا انفصام لها بين السلوك والفقه وما وجدنا لذلك أفضل من القاضي عبدالوهاب نفسه إذ يأبي الحق الا أن يطلع نجمه – رغم عدم انتسابه إلى مدرسة السلوك – نسرِّح الطرف في شرحه للرسالة ونقتطف من بين سطوره اراءاً وأقوالاً هي السلوك عينه تظهر تلك الوصلة العظمى فجمعنا بذلك بين موضوع المؤتمر وشرح مَنْ سمَّي باسمه ومالم ولن نحيد عنه من أن : **الفقه والسلوك لأ قوام لاحدهما من دون الاخر .**

رسالة ابن أبي زيد القيرواني

تعتبر رسالة ابن أبي زيد القيرواني رضي الله عنه من أهم مصادر الفقه المالكي وأضحت منذ تأليفها حجة معتمدة عند أهل الحل والعقد مقبولة عند الفقهاء والعوام على السواء فاصلة عند الاسْتدلال في المناظرات والحوارات العلمية،كما دُرّست في جُل مؤسسات الفقه المالكي من القرويين بفاس إلى الحرمين الشريفين مروراً بالزيتونة في تونس والأزهر في مصر ومحاضر موريتانيا ومالي ومساجد ليبيا وزواياها،قال في معالم الإيمان :

انتشرت الرسالة في سائر بلاد المسلمين حتى بلغت العراق واليمن والحجاز والشام ومصر وبلاد النوبة وصقلية وجميع بلاد أفريقيا والأندلس والمغرب وبلاد السودان وتنافس الناس في اقتنائها حتى كتبت بماء الذهب(١) . اهـ.

لذا لا عجب وقد حظيت بهذه الشهرة الواسعة في أوساط طلاب العلم أساتذة وتلاميذ وعكفت عليها جهابذة فقهاء المالكية أن تلاقي انتشاراً شمل الدول العربية وأوروبا الغربية وأن تثري البحث العلمي في الفقه الإسلامي بشروح تناولتها أفادت ونفعت وزادت في شمولية تراثنا الاسلامي الكريم .

ولو استقصينا شروح هذه الرسالة المطبوعة وتلك المخطوطة التي أشارت إليها كتب طبقات المالكية التي عنيت بتوثيق مؤلفات علماء المذهب أخص منها بالذكر:

١- كتاب شجرة النور الزكية في طبقات المالكية للشيخ محمد بن محمد مخلوف .

٢- كتاب اليواقيت الثمينة في أعيان مذهب عالم المدينة للشيخ محمد البشير ظافر المدني الذي ترجم فيه لعلماء المذهب المالكي الّذين فاتهم =

٣- = أحمد بابا التمبكتي في كتابه نيل الابتهاج لما ليس في الديباج الذي هو بدوره تكملة =

٤- = لكتاب الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب لمؤلفه ابن فرحون،ولم يطبع

---

(١) معالم الايمان ، عبد الرحمن الدباغ ج ٣ ص ١١١.

من طبقاته إلا جزءً واحداً .

لوجدنا أنفسنا أمام كم كبير كريم يحتاج بحثاً وتتبعاً دؤوباً لرصده وتوثيقه إذ بلغت شروحها الفقهية واللغوية أربعين شرحاً إضافة إلى نظمها في قوالب شعرية ومن ذلك منظومة تنظيم مشكلات الرسالة لمحمد بن أحمد الغازي المكناسي (ت ٩١٩ هـ) ومنظومة الطالب أحمد الغلاوي الشنقيطي (ت ١٢٠٩ هـ) .

ونحن نرى الآن بحمد الله شرحاًعلى هذه الرسالة يرى النور بين الفينة والأخرى مطبوعاً في ديار المسلمين بجهد العلماء والمخلصين أفراداً ومؤسسات فجزاهم الله خيراً ولعلَّ من شواهد ذلك هذا المؤتمر العلمي حول أحد شراحها الكرام ألا وهو القاضي عبد الوهاب البغدادي .

بيد أننا نذكر عشرة من أشهر شراحها على سبيل الاستشهاد لا الحصر فمنهم :

١) الشيخ أبو بكر الأبهري (ت ٣٧٥ هـ) .

٢) الشيخ القاضي عبد الوهاب البغدادي (ت ٤٢١ هـ) .

٣) الشيخ أبو الحسن الصغير (ت ٧١٩ هـ) .

٤) الشيخ الفاكهاني (ت ٧٣١ هـ) .

٥) الشيخ عبد الرحمن الجزولي (ت ٧٤١ هـ) .

٦) الشيخ أبو الحجاج الأنفاسي (ت ٧٦١ هـ) .

٧) الشيخ على بن يوسف الشبيبي (ت ٧٨٢ هـ) .

٨) الشيخ أبو الفضل بن ناجي (ت ٨٣٨ هـ) .

٩) الشيخ أحمد زروق (ت ٨٩٩ هـ) .

١٠) الشيخ أبو الحسن على بن محمد المنوفي الشاذلي (ت ٩٣٩ هـ) وله عليها خمسة شروح أخرى على ماذكر في نيل الابتهاج ج٢ ص ٣٦٤ .

الدولة العبيدية الشيعية

من ٢٩٦ هـ - إلى ٥٦٧ هـ

إنَّ التعريف بالظروف السياسية والاقتصادية والفكرية والثقافية والاجتماعية التي عاصرها الإمام ابن أبي زيد من الضرورة بمكان وذلك ليتسنَّى لنا وضع عمله الرائد هذا في إطاره التاريخي الصحيح .

ومن المعلوم أنَّ هذا العلامة الفذ ولد وعاش في عهد الدولة العبيدية التي قامت على المذهب الشيعي الذي لا يتفق في بعض آرائه مع المذهب المالكي الذي يعتبر ابن أبي زيد من أساطينه والأقسى من هذا أن هذه الدولة سعت بكل ماتملك من قوة لحمل الناس على المذهب الشيعي الأمر الذي لم يتأت لها بل جلب عليها نقمة الناس وكرههم .

أسس هذه الدولة عبيد الله المهدي وهو شريف حسيني من بيت النبوة على أنقاض دولة الأغالبة واستطاعت أن تبسط نفوذها في أوج ازدهارها على كل الشمال الإفريقي وجنوب اوروبا من مصر إلى طنجه إلى مالطه وصقلية وسردينيا وكورسيكا .

وقد بلغت وجهات النظر في نسب العبيديين أكثر من مائتين،والذي نذهب إليه هو شرفهم وانتسابهم إلى الأرومة النبوية الطاهرة – والله أعلم – وقد سبقنا إلى ذلك ابن الأثير في الكامل ،وابن خلدون في المقدمة،والمقريزي في الاتعاظ،والشريف ابن طباطبا .

ومن أشهر من طعن في نسبهم ابن خلكان في الوفيات،وابن عذاري في البيان المغرب،والجلال السيوطي في تاريخ الخلفاء،وابن مالك في كشف أسرار القرامطة،والله وحده أعلم بالصواب .

استمرت هذه الدولة لمدة ٢٩٨ سنة قمرية .

نقل عبيد الله المهدي عاصمة دولته من رقادة إلى مدينة المهدية التي بناها وجعلها عاصمة لدولته مبتعداً عن القيروان التي لم تتقبل لتمكن المذهب المالكي ثم الحنفي السنيين بها أفكاره .

وقد جلب سوء تصرف الدولة العبيدية واستبداد رجالها ومجاهرتهم بالسوء لبعض الرموز الإسلامية المحترمة كره الناس ومقتهم لها ومن ذلك أن مدينة المرج وهي مدينة ليبية

قوية غنية مزدهرة يشكل الاستيلاء عليها كسباً سياسياً واقتصادياً ضخماً، كانت رفضت الحكم العبيدي مما دفع العبيديين لارتكاب مجازر وفظائع وحشية فقطعوا لحوم بعض سكانها وشووها سنة ٣٠١ هـ إضافة لألف رجل.

قتـلوا لتصنع مِن جثثهم منصة عالية وضع عليها القائد العبيدي حباسه بن يوسف كرسيه ليتحدث من فوقه لسكانها،ولما لم تجد كل هذه الحلول نفعا أحرق سنة ٣٠٤ هـ القائد الشيعي أبو مديني بن فروخ معظم أهلها (١).

وفي سنة ٣٦٢ هـ رحل المعز لدين الله الفاطمي(ت ٣٦٥هـ) إلى مصر.

إن تاريخ انتهاءالدولة العبيدية هو ١٠ / محرم / ٥٦٧ هـ وهو يوم وفاة العاضد آخر خلفائها الأربعة عشر،بيد أن حكمهم في المغرب العربي بعد رحيل المعز إلى مصر كان يمثله رسمياً بنو زيري حتى سنة ٤٤٠ هـ ومؤسس دولة بني زيري هوأبو الفتوح بلكين بن زيري الصنهاجي.

عانت القيروان بدورها كبقية مدن الشمال الأفريقي من الحكم الشيعي،خصوصاً وقد ألقت ثورة صاحب الحمار أبي يزيد مخلد بن كيداد الخارجي بكلكلها عليها الذي استمال علماء السنة القيروانيين ومنهم بعض أساتذة ابن أبي زيد صاحب الرسالة نفسه الشيخ أبا الفضل المسمَّى لصفه ثم غدر في عام ٣٣٣ هـ بعلماء السنة فقتل منهم ٣٥ إضافة للعامة.

كما هاجم صاحب الحمار العاصمة المهدية ومدينة تونس والقيروان التي دخلها منتصراً عدة مرات مما سبب لها دماراً وخراباً نجد وصفه بليغاً عند ابن خلدون الذي ذكر أن جيش صاحب الحمار لم يجدماينهب ففضل العودة إلى قراه بأعلى الجبال (٢).

كما اتسمت هذه المرحلة باحتدام القتال بين القبيلتين البربريتين الكبيرتين صنهاجه وهي القبيلة الحاكمة وزناته وانتهى الصراع بانتصار قبيلة زناته وتولى فلفل بن سعيد حكم طرابلس التي هي من أهم مدن الدولة العبيدية وتتداخل مع العاصمة مباشرة جغرافياً وسكانياً وسياسياً ويعتبر المساس بها تحدياً مباشراً للسلطة الحاكمة على بعد كيلومترات

(١) انظر البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب لابن عذاري المراكشي ج ١ ص ١٧٠.

(٢) تاريخ ابن خلدون ج٤ ص ٤٠.

معدودة في المهدية مما زاد نسبة التوتر وعدم الاستقرار في الدولة عموماً .

ففي سنة ٣٩١ هـ قاد فلفل بن سعيد بن خزرون انقلاباً ناجحاً مكنه من اعتلاء سدة الحكم في طرابلس وبعث بالطاعة إلى الحاكم بأمر الله الفاطمي في مصر،وفي سنة ٤٠٠هـ توفي فلفل فولت قبائل زناته أخاه ورو بن خزرون الذي زحف عليه ابن باديس مستغلاً الإمدادات التي وصلته من الخليفة المهدي بن عبدالجبار بقرطبة فاستولى على طرابلس وفر ورو ثم رجع بعد أن أمنه باديس.

وظهر ببرقة على الحدود الشرقية للدولة العبيدية في سنة ٣٩٥ هـ الوليد بن هشام بن عبد الملك بن عبد الرحمن الداخل الملقب بأبي ركوة الذي ثار على الفاطميين وحكم برقة ووصل نفوذه إلى صعيد مصر،ثم طمع في الاستيلاء على القاهرة معقل الخلافة الفاطمية الشيعية الرئيس فزحف عليها بجيوشه ولكنه انكسر أمام جيش الخليفة الفاطمي وتشتت جيشه .

وفي سنة ٤٤٠ هـ أعلن المعز بن باديس حاكم المغرب العربي للفاطميين رجوعه نهائياً عن المذهب الشيعي لمذهب أهل السنة والجماعة وقضى أيضاً على المذاهب الأخرى كالصفرية والإباضية والنكارية والمعتزلة وحمل الناس على مذهب الإمام مالك،وفي نفس السنة أبتُلي المغرب العربي بمجاعة كادت تخليه من السكان،وبعدها بثلاث سنين انتفضت برقه أيضاً وأحرقت أعلام الشيعة ونبذت طاعتهم،على يد أميرها جبارة بن مختار.

في هذا العهد العصيب ولد وعاش ابن أبي زيد وتُوفِّي فللّه دره كيف قام بهذا العمل العلمي الخالد في وسط هذه التيارات العاصفة.

أبن أبي زيد القيرواني صاحب الرسالة

رغم أن بحثنا يتناول منهجية التصنيف السلوكي في التأليف الفقهي المالكي إلا أنه من الضروري جداً التعريف بمؤلف هذه الرسالة سيما وأننا سنرى جذوراً سلوكية لها تتمثل في علاقة كريمة بين مؤلفها ابن أبي زيد وأحد أقطاب السلوك وهو الشيخ محرز بن خلف رضي الله عنه الذي سيأمر بتأليفها .

وابن أبي زيد هو الإمام أبو محمد عبدالله بن أبي زيد عبد الرحمن النفزاوي القيرواني ولد بالقيرواني بتونس سنة ٣١٠ هـ إبَّان أوائل عهد الدولة العبيدية وتوفي مساء الاثنين في ٣٠ / شعبان / ٣٨٦ هـ .

وخير مانستفتح به ترجمته ماحلاَّه به القاضي عياض رضي الله عنه قال : إمام المالكية في وقته وقدوتهم وجامع مذهب مالك. اهـ(١) .

كان من أكبر فقهاء القيروان لم تذكر له رحلة لطلب العلم عدا رحلة الحج إلى بيت الله الحرام وهي مناسبة هامة يلتقي فيها العلماء ويأخذون عن بعضهم البعض وكثيراً ماتفيد لقياً وعلماً وتصنيفاً، بيد أن مكانة القيروان وسمعتها كأحد أهم حواضر الإسلام جعلتها محطة هامة في أسفار العلماء يمرُّون عليها مشرقين ومغربين للحج أو طلب العلم ومنهم استفاد ابن أبي زيد وغيره .

وصفه القاضي عياض رضي الله عنه أيضاً بقوله : كان واسع العلم كثير الحفظ والرواية وكتبه تشهد له بذلك فصيح القلب ذا بيان ومعرفة بما يقوله .اهـ(٢) .

ووصفه الشيرازي بقوله : كان يعرف بمالك الصغير. اهـ(٣) .

ووصفه الذهبي بقوله : كان على أصول السلف في الأصول. اهـ(٤) .

ووصفه محمد مخلوف بقوله : الفقيه النظَّار الحافظ الحجة إمام المالكية في وقته كان واسع العلم كثير الحفظ والرواية كتبه تشهد له بذلك فصيح القلم يقول الشعر ويجيده مع صلاحٍ وورعٍ وعفةٍ إليه انتهت رئاسة الدين والدنيا وإليه الرحلة من الآفاق اهـ(٥) .

---

(١) و (٢) و (٣) و (٤) ترتيب المدارك للقاضي عياض ج ٢ ص ٤٩٢ .
(٥) شجرة النور الزكية، محمد بن محمد مخلوف ص ٩٦ .

ومن أهم شيوخه : أبو عثمان القاضي، ابن الوراق، أبو الفضل المسمَّى،أبو العرب التميمي،أبو بكر اللباد،الصواف،موسي الغرابلي،أبو عثمان سعدون الخولاني،أبو ميسرة أحمد بن نزار،أبو القاسم حبيب بن الربيع .

مؤلفاته :

لاشك أن الرسالة وهي باكورة إنتاجه العلمي على ماذكر صاحب معالم الإيمان هي الأشهر حتى أنك إذا ما قلت « الرسالة » ألحقت بها ابن أبي زيد، وله أحد عشر مؤلفاً آخر بيد أنها لم تشتهر مثلها هي :

١- تهذيب العتبية .

٢- مختصر المدونة يحوي ٥٠,٠٠٠ مسألة في الفقه اختصر فيها الأسدية والمدونة .

٣- النوادر والزيادات على ما في المدونة وغيرها من المهمات.

٤- البيان في إعجاز القرآن .

٥- تفسير أوقات الصلاة .

٦- الذب عن مذهب مالك .

٧- المعرفة واليقين .

٨- النهي عن الجدل .

٩- المضمون من الرزق .

١٠- الموعظة والنصيحة .

١١- الموعظة الحسنة لأهل الصدق .

رسالة ابن أبي زيد القيرواني

عملٌ فقهي ضخم جذوره ضاربة القوة والعمق في مدرسة السُّلوك

الإنسان ذاك السِّر الإلهي العجيب خلقة الله وخليفته في أرضه هو مزيج من مادة ومعنى، وأعماله كلها من عبادة وعادة مزيج من هذين الأصلين المعجزين، فالذي يدرس فقه الصلاة من ركوع وسجود وقيام ويأتي بها من دون خشوع وانكسار وتقرب إلى ربه هو قطعاً لم يصل، والذي يحب الله ويرغب في مرضاته ولا يعمل بأمره ونهيه هو لايحب إلا هواه هو لا علاقة له بقرب من الله أو رضوان وقس على ذلك سائر الأعمال .

يقول الشيخ أحمد الرفاعي رضي الله عنه (ت ٥٧٨ هـ) : إذا انفرد قلبك بحسن نيته وطهارة طويته وقتلت وسرقت وزنيت وأكلت الربا وشربت الخمر وكذبت وتكبرت وأغلظت القول فما الفائدة من نيتك وطهارة قلبك ؟ وإذا عبدت الله وتعففت وصمت وتصدّقت وتواضعت وأبطن قلبك الرياء والفساد فما الفائدة من عملك ؟ فإذا تعين لك أنَّ الباطن لُبُّ الظاهر، والظاهر ظرف الباطن ولا فرق بينهما ولا غني لكليهما عن الآخر فقل : نحن من أهل الظاهر وكأنك قلت : ومن أهل الباطن . اهـ[١].

وإننا نجافي الصواب ونحارب الحق والإنصاف إذا ما سجنا جهابذة مفكرينا وأفذاذ علمائنا في قضبان الأفعال الجافة والحركات المدروسة المقننة ونأينا بهم عن ذلك الفضاء الرحب من أعمال القلوب ونبضات الأفئدة من خشوع وانكسار وورع وحب وتلذذ بمناجاة الله تعالى وقربه وحزن واشفاق من البعد عن مرضاته والخروج عن أمره ونهيه .

إنَّ الفقيــــر هو الفقيــه وإنما راء الفقيـــــر تجمعت أطرافها

ولعل في هذا مايفسر حرص السادة الفقهاء المالكيين على ذكر تلك المقولة الخالدة للإمام مالك بن أنس رضي الله عنه في مؤلفاتهم يستشهدون بها ويفيضون في شرحها وبيانها ألا وهي قوله : من تفقَّهَ ولم يتصوَّف فقد تفسَّق ومن تصوَّف ولم يتفقه فقد تزندق ومن جمع بينهما فقد تحقق . اهـ.

---

(١) البرهان المؤيد، أحمد الرفاعي ص ٦٨.

وعلى سبيل الاستشهاد لا الحصر نجد أنه ذكرها العلامة العدوي على شرح الإمام الزرقاني على متن العزية ج٣ ص ١٩٥ ،والملا علي القاري في كتاب شرح عين الحلم وزين الحلم ج١ ص ٣٣ ،وابن خلدون في شفاء السائل لتهذيب المسائل،وأحمد زروق وهو من أعيان فقهاء المذهب المالكي في قواعد التصوف ص ١٣ قاعدة ٤ ، وقد خصصناه في هذا البحث بمزيد تركيز لما يمثله من جمع مثالي بين مدرستي الفقه والسلوك،والتتائي في شرحه على ابن رشد ص ٥، والشيخ مياره في شرحه على ابن عاشر .

لذا فثم علاقة تكامل طبيعية بين الفقه والسلوك وقد أفاض فحول المدرستين في التنبيه إليها، ونختار من ذلك قول الشيخ أحمد زروق رضي الله عنه في قواعده :

قاعدة ٢٦ : حكم الفقه عام في العموم لأن مقصده إقامة رسم الدين ورفع مناره واظهار كلمته وحكم التصوف خاص في الخصوص لأنه معاملة بين العبد وربه من غير زائد على ذلك فمن ثم صحَّ إنكار الفقيه على الصوفي ولا يصح إنكار الصوفي على الفقيه ولزم الرجوع من التصوف إلى الفقه والاكتفاء به دونه ولم يكف التصوف عن الفقه بل لا يصح دونه ولا يجوز الرجوع منه إليه إلا به وإن كان أعلى منه مرتبة فهو أسلم وأعم منه مصلحة، ولذلك قيل كن فقيهاً صوفياً ولا تكن صوفياً فقيهاً، وصوفي الفقهاء أكمل من فقيه الصوفية وأسلم لأن صوفي الفقهاء قد تحقَّقَ بالتصوف حالاً وعملاً وذوقاً بخلاف فقيه الصوفية فإنه المتمكن من علمه وحاله ولا يتم له ذلك إلاَّ بفقه صحيح وذوق صريح ولا يصح له أحدهما دون الآخر كالطب الذي لا يكفي علمه عن التجربة ولا العكس (١) اهـ.

ويهمنا في ذلك بيان أثر هذه العلاقة في رسالة ابن أبي زيد إذ ذكر في معالم الإيمان أنَّ الذي أمر ابن أبي زيد بتأليفها هو الشيخ الصوفي محرز بن خلف رضي الله عنه ففعل(٢).

ومحرز بن خلف هذا من أقطاب رجال السلوك ومشاهيرهم .

ويبدو أن القاضي عبد الوهاب وهو الألمعي اللّوذعي تفطّن لهذا الأمر والغالب على

(١) قواعد التصوف، للشيخ أحمد زروق ص ٢٢.

(٢) معالم الايمان، عبد الرحمن الدباغ ج ٣ ص ١١١.

ظَنِّي – والله أعلم – أن هذا مقصده بتقريظه لهذه الرسالة من ذكره لجمعها الفرائض والزهد إذ بعث ابن أبي زيد القيرواني على ماذكر الشيرازي (١) بنسخة من الرسالة إلى القاضي عبدالوهاب ففرح بها وشرحها وأثنى عليها فقال :

رسالة علم صاغها العالم النهد
قد اجتمعت فيها الفرائض والزهد
أصول أضاءت بالهدى فكأنما
بدا لعيون الناظرين بها الرشد
وفي صدرها علم الديانة واضحاً
وآداب خير الخلق ليس لها ند
لقد أم بانيها السداد فذكره
بها خالد ماحج واعتمر الوفد

(١) طبقات الشيرازي ص ١٦٨ .

المؤدب محرز بن خلف

هو الصالح العابد الفقيه ولي الله الشيخ أبو محمد محرز بن خلف بن رزين كان يقيم بطرابلس في ليبيا يشتغل بتعليم المسلمين كتاب الله الكريم وشرع وآداب الإسلام ومن هنا جاءه لقب المؤدب، وقد كان محط مدائح العديد من متصوِّفي القطر بعده،وذكره الشيخ عبد السلام الأسمر وهو من أكبر متصوفي ليبيا (ت ٩٨١ هـ) مادحاً في أكثر من قصيدة،منها قوله باللسان الدارج :

يامـــحـــرز الســلطـــان
قـــدرك عظـيم الشـــان
عـــلاك عـــالي الشـــان
أمـــــرك من التــنــزيل

وفي سنة ٤٠٦ هـ خرج أبو مناد باديس بن منصور الصنهاجي إلى طرابلس في جيش عظيم وأقسم ألا يرحل عنها حتى يدمرها،ويسويها بالأرض ويجعلها فدناً للزراعة فاجتمع أهل اطرابلس إلى الشيخ محرز،وقالوا : ياولي الله،قد بلغك ماقاله باديس،فادع الله أن يزيل عنا بأسه.

فرفع يديه إلى السماء وقال : يارب باديس اكفنا باديس
فهلك باديس الصنهاجي في ليلته (١).

ثم غادر الشيخ محرز رضي الله عنه بعد مدة طرابلس إلى تونس حيث أدركته المنية بها وقد أناف عن سبعين عاماً،ودفن بداره .

ولا يعتد بما ذكره صاحب كتاب أهل الزمان بأخبار تونس وعهد الأمان،وصاحب كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس،من قولهما أنَّه توفي سنة ٤٦٣ هـ،والصحيح هو ماذكره ابن قنفد القسنطيني في كتاب الوفيات من أن الشيخ أبو محمد محرز بن خلف توفي بتونس سنة ٤١٣ هـ = ١٠٢٢ م.

وكان رحمه الله يهتم على عادة المتصوفة بلُقيا الصالحين وصحبتهم وزيارتهم ولما رجع من الحج إلى تونس سأله أهلها من رأيت في طريقك من الصالحين ؟

فقال : رأيت بأطرابلس رجلاً وامرأة أما الرجل فأبو عثمان الحشاني وأما المرأة فسمدونه.

---

(١) وفيات الأعيان، ابن خلكان ج ١ ص ٢٦٦ .

القاضي عبد الوهاب البغدادي

صار من الضروري بعد أن مهدنا لموضوعنا ذكر ترجمة لمن عقد هذا المؤتمر باسمه وهو القاضي عبد الوهاب البغدادي وأحسب أن كل البحوث في هذا الملتقي ستترجم له ولا أعتقد أنني سآتي بأفضل مما سيأتي به غيري وإنّما الغاية هي أن يتوفر أكبر عدد من التراجم لتكون في نهاية المطاف ترجمة ضافية تليق بهذا التجمع العلمي غير المسبوق حول هذه الشخصية الفذة .

وسأل نقل جُلّ ماأذكره في هذه الترجمة عن ابن خلكان إذْ وجدت الجميع تقريباً عالة عليه ناهيك بوقوع غيره في أخطاء تجعل التحفظ واجباً في النقل عنهم ومن ذلك ما شذّ به الزركلي في الأعلام من قوله في نسبه الثعلبي عوضاً عن التغلبي (١) .

هو أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر بن أحمد بن الحسين بن هارون بن مالك بن طوق التغلبي (صاحب الرحبة) البغدادي .

ولد ببغداد في يوم الخميس ٧ / شوال / ٣٦٢ هـ = ٩٧٣ م،لأسرةٍ محترمة مرموقة إذ كان أبوه (ت ٣٩١ هـ) من أعيان الشهود المعدلين ببغداد،كما كان أخوه أبو الحسن محمد بن على بن نصر (ت ٤٣٧ هـ) أديباً فاضلاً صنّفَ كتاب المفاوضة للملك العزيز جلال الدولة أبي منصور بن أبي طاهر بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه جمع فيه ماشاهده وهو من الكتب الممتعة في ثلاثين كراسة وله رسائل .

كان القاضي عبد الوهاب فقيهاً أديباً شاعراً صنف في مذهبه وهو قاض من فقهاء المالكية له نظم ومعرفة بالأدب ولي القضاء في أسعرد وبادرايا في العراق ورحل إلى الشام فمر بمعرة النعمان واجتمع بالشاعر أبي العلاء المعري وتوجه إلى مصر فعلت شهرته وبها توفي .

قال ابن خلكان ايضا : ذكره الخطيب في تاريخ بغداد فقال : سمع أبا عبد الله ابن العسكري وعمر بن محمد بن سنبك وأبا حفص بن شاهين وحدث بشيء يسير كتب عنه وكان ثقة ولم يلق من المالكيين أحداً أفقه منه وكان حسن النظر جيد العبارة وتولى القضاء ببادرايا وباكسايا وخرج في آخر عمره إلى مصر فمات بها . اهـ.

---

(١) الأعلام ، خير الدين الزركلي المجلد ٤ ص ١٨٤ .

وأضاف ابن خلكان قائلاً : ذكره ابن بسام في كتاب الذخيرة فقال : كان بقية الناس ولسان أصحاب القياس وقد وجدت له شعراً معانيه أحلى من الصبح وألفاظه أحلى من الظفر بالنجح ونبت به بغداد كعادة البلاد بذوي فضلها وعلى حكم الأيام في محسني أهلها فخلع أهلها وودع ماءها وظلها وحدثت أنه شيعه يوم فصل عنها من أكابرها وأصحاب محابرها جملة موفورة وطوائف كثيرة وأنه قال لهم : لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة وعشية ماعدلت ببلدكم بلوغ أمنية، وفي ذلك يقول:

سلام على بغداد في كل موطن
وحق لها مني سلام مضاعف
فوالله ما فارقتها عن قِلىً لها
وإني بشطي جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت عليَّ بأسرها
ولم تكن الأرزاق فيها تساعف
وكانت كخِلٍّ كنتُ أهوى دنوه
وأخلاقه تنأى به وتخالف

واجتاز في طريقه بمعرة النعمان وكان قاصداً مصر وبالمعرة يومئذ أبو العلاء المعرِّي فأضافه، وفي ذلك يقول من جملة أبيات :

والمالكيُّ ابنُ نَصْرٍ زار في سَفَرٍ
بلادَنا فحمِدْنا النأيَ والسَّفَرا
إذا تفقَّه أحْيا مالكاً جَدَلاً
وينشُرُ الملكَ الضِّلِّيلَ إنْ شَعَرا

ثم توجَّه إلى مصر فحمل لواءها وملأ أرضها وسماءها واستتبع سادتها وكبراءها وتناهت إليه الغرائب وانثالت في يديه الرغائب فمات لأول ما وصلها من أكلة اشتهاها

فأكلها،وزعموا أنه قال وهو يتقلب ونفسه يصعد ويتصوب : لا إله إلا الله إذا عشنا متنا

قال ابن خلكان : له أشعار رائقة طريفة فمن ذلك قوله :

بغداد دار لأهل المال طيبة
وللمفاليس دار الضنك والضيق
ظللت حيران أمشي في أزقتها
كأنني مصحف في بيت زنديق

وله :

أهيم بذكر الشرق والغرب دائما
ومالي لاشرق البلاد ولا غرب
ولكن أوطانا نأت وأحبة
فعدت متى أذكر عهودهم أصب
ولم أنس من ودعت بالشط سحرة
وقد غرد الحادون واشتغل الركب
أليفان هذا سائر نحو غربة
وهذا مقيم سار من صدره القرب

وله أيضاً :

قطعت الأرض في شهرَي ربيع
إلى مصر وعدت إلى العراق
فقال لي الحبيب وقد رآني
مشوقاً للمضمرة العتاق
ركبت على البراق ؟ فقلتُ كلا
ولكنني ركبت على اشتياقي

وأردف ابن خلكان متذكراً : كان على خاطري أبيات لا أعرف لمن هي،ثم وجدتها في عدة مواضع للقاضي عبد الوهاب المذكور،وهي :

متى يصل العطاش إلى ارتواء
إذا استقت البحار من الركايا
ومن يثني الأصاغر عن مراد
وقد جلس الأكابر في الزوايا
وإن ترفع الوضعاء يوماً
على الرفعاء من إحدى الرزايا
إذا استوت الأسافل والأعالي
فقد طابت منادمة المنايا

مؤلفاته :

١ – لا شك أنّ شرحه لرسالة ابن أبي زيد القيرواني نال شهرةً أكثر من غيره إذ قلّما تجد كتاب طبقات أو فقه إلا وفيه إشارة له .

وله بالإضافة لهذا الشرح :

٢ – كتاب التلقين (فقه مالكي) (ط) قال عنه ابن خلكان في الوفيات : وهو مع صغر حجمه من خيار الكتب وأكثرها فائدة . اهـ .

٣ – عيون المسائل (ط) .

٤ – النصرة لمذهب مالك (خ) .

٥ – شرح المدونة (خ) .

٦ – الإشراف على مسائل الخلاف (ط) جزءان .

٧ – غرر المحاضرة ورؤوس مسائل المناظرة (خ) .

٨ – شرح فصول الأحكام (خ) .

٩ – اختصار عيون المجالس (خ) .

١٠ – المعونة (ط).

وتوفي ليلة الإثنين ١٤ / صفر / ٤٢٢ هـ ١٠٣١ م بمصر وقيل إنه توفي في شعبان في السنة المذكورة ودفن في القرافة الصغرى فيما بين قبة الإمام الشافعي وباب القرافة بالقرب من ابن القاسم وأشهب (١) .

منهجية التصنيف السلوكي في التأليف الفقهي المالكي

يشكل اختلاف وتباين مدارس ومناهج وأساليب التصانيف في أي مادة علمية أحد أهم أسباب إثراء روافد البحث فيها إذْ يتناولها كل من زاويته ونظرته الخاصة المتشكلة وفق منهجه وتجربته وثقافته ليكوِّن هذا الكل في النهاية المحصلة وحدة شاملة متكاملة أقرب إلى الصواب وأحْوى للآراء والنظريات .

وليست مادة الفقه الإسلامي بدْعاً في ذلك لاسيما وأن كلمة الفقه نفسها تعني العلم بالشيء والفهم له والفطنة (٢) أي فهم النصوص والتعامل معها بحثاً ودراسة، ومن هذا المنطلق افتخرت المكتبة الإسلامية بمادة فقهية نادرة في تاريخ الإنسان صاغها مفكرو الأمة بمناهج متعددة دلَّت على اتِّساع أفق هذه الكوكبة المبدعة الفذة وسبْقها الإنساني لاحترام كافة الآراء والأقوال .

ولو أخذنا مناهج التصنيف في الفقه المالكي على سبيل المثال لا الحصر كشاهد على مانقول لوجدنا منها :

(أ) المنهج الأصولي الذي يُرْجع كل نص فقهي لأصله في مصادر التشريع وعلى رأسها القرآن الكريم والحديث الشريف وخير من يمثل هذا المنهج في الفقه المالكي القاضي عبدالوهاب البغدادي (ت ٤٢٢ هـ) نفسه الذي نحن ضيوف عليه في مؤتمره هذا .

(ب) المنهج المختصر الذي يستوعب فيه اللفظ المركز والجملة المختصرة المسائل الفقهية وذلك بغرض سهولة حفظه وانتشاره وخير من يمثل هذا المنهج في الفقه

---

(١) انظر ترجمته في :تاريخ بغداد (١١ / ٣١) ترتيب المدارك (٤ / ٦٩١) فوات الوفيات،(٢ / ٤٩١)طبقات الشيرازي (١٤٣)،البداية والنهاية (١٢ / ٣٢)، وفيات الأعيان، (٣ / ٢١٩)شذرات الذهب (٣ / ٢٢٣)،تبيين كذب المفترى (٢٤٩ / ٢٥٠) ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (٤ / ٢ / ٥١٥)، سير أعلام النبلاء (١٧ / ٤٢٩) .

(٢) انظر القاموس المحيط للفيروز أبادي ج ٤ ص ٢٨٩ .

المالكـي الشيخ أبو الضياء خليل بن إسحاق (ت ٧٧٦ هـ) صاحب المختصر ذائع الصيت .

(ج) المنهج السلوكي الذي يتسم بالتعبير الدقيق الواضح مع تحرير وضبط المسائل وانتقاء العبارة الملائمة مع عناية بالذب عن السنة المطهرة والجمع بين الفقه والتصوف وخير من يمثل هذا المنهج في الفقه المالكي الشيخ أحمد زروق (ت ٨٩٩ هـ) في شرحه لرسالة ابن أبي زيد القيرواني .

(د) المنهج المصاغ في قوالب منظومات شعرية بغرض تيسير حفظه على طلاب العلم وخير من يمثل هذا المنهج في الفقه المالكي الشيخ عبد الواحد بن عاشر (١٠٤٠ هـ) في منظومته المسماة المرشد المعين على الضروري من علوم الدين وكان نظام التعليم في المساجد في ليبيا إلى عهد قريب أدركناه يقوم على تعليم الطلاب القرآن الكريم مع بيتين من منظومة ابن عاشر فيحفظها الطالب في لوح واحد في سن مبكرة وكان بعض مشايخنا يسميها عكاز الطالب .

(هـ) المنهج اللغوي الذي يذكر اللفظ الفقهي فيوضح معناه ويحل معقوده ويبسط لفظه ويشرح تراكيبه فإذ باللفظ الغريب معروف والكلمة الحوشية مطروقة المعنى مفهومة وخير من يمثل هذا المنهج في الفقه المالكي الشيخ محمد بن أحمد مياره المالكي (ت ١٠٧٢ هـ) في كتابه الدر الثمين والمورد المعين .

(و) المنهج الميسر للفظ المسهل للعبارة بغرض تيسيره للدرس في المساجد والزوايا للعوام وغير المنتظمين في طلب العلم وخير من يمثل هذا المنهج في الفقه المالكي الشيخ يوسف الصفتي (ت بعد ١١٩٣ هـ) في حاشيته على الجواهر الزكية في حل ألفاظ العشماوية للشيخ أحمد بن تركي .

(ز) المنهج الإشاري الذي يستنبط معان إسلامية صوفية تربوية في كل مسألة فقهية ودلالات سلوكية في كل مبحث فقهي وخير من يمثل هذا المنهج في الفقه المالكي الشيخ أحمد العلوي المستغانمي (ت ١٣٥٣هـ) في كتابه المنح القدوسية في شرح المرشد المعين بطريق الصوفية .

هذه أظهر سمات مناهج التصنيف في الفقه المالكي، ولعل أقرب منهجين لنا في بحثنا هذا هما (المنهج «هـ» والمنهج «ز») .

وبتتبع تراجم فقهاء المالكية نجد جلهم خصوصاً منذ القرن الثامن الهجري قد جمعوا بين السلوك والفقه، بيد أننا سنقتصر في بحثنا هذا على الاستشهاد بستة منهم ويرجع ذلك للأسباب التالية :

أ – هذا البحث وهو يتخصص في منهجية التصنيف السلوكي في التأليف الفقهي المالكي أحد بحوث عدة كل في موضوع على حدة محورها جميعها شرح القاضي عبدالوهاب البغدادي للرسالة وينبغي أن تتكامل في النهاية مع بعضها لتشكل بحثاً واحداً جامعاً.

ب – صعوبة الإحاطة في هذا البحث المعد ليطرح في مؤتمر علمي مما يوجب قدراً من الاختصار والتخصص بكل من صنف في الفقه من أهل السلوك اذ سيخرجه عن موضوعه وينأى به عن الغرض من إعداده .

ج – تعمدنا أن يمثِّل ستتهم توزيعاً جغرافياً حسناً من أقصى المغرب العربي غرباً إلى الديار المقدسة شرقاً إلى تشاد والسودان جنوباً إلى من تنقل بين معاقل التعليم المالكي من أقصى غربها إلى أقصى شرقها .

د – يعتبر ستتهم من فقهاء المالكية المتخصصين المميزين كما أن ستتهم اشتهروا بأنهم لم يخرج واحد منهم قط عن المذهب المالكي لغيره ولا يوجد في تصانيفهم أو فتاويهم أو أقوالهم سوى هذا المذهب .

د – أنَّه لا يختلف اثنان على أن ستتهم إضافة لتخصصهم في الفقه المالكي من أكبر أقطاب السلوك بل بلغ العلم بذلك عنهم مبلغ التواتر مما يغني عن سرد أدلة وبراهين تؤكد ذلك أو تناقشه .

وسنخصهم دون غيرهم ممن سنتعرض لذكره بتراجم تعرف بهم لنكون أقرب إلى شخصياتهم الكريمة،فهم :

(١) الشيخ أحمد زروق :

هو أبو الفضل شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي نسبة إلى قبيلة البرانس بالمملكة المغربية الفاسي المعروف بَزرُّوق ولد بفاس يوم الخميس ٢٢ / محرم / ٨٤٦ هـ،وهو رجل قصير القامة جميل الهيأة يركب فرساً حمراء ويحمل رمحاً في يده وليس لقب زروق شائعاً في أسرته وإنما ورثه من جده الذي كانت عيناه زرقاوين بلون البحر،عاش رضي الله عنه يتيماً إذ توفي والداه في الاسبوع الذي يلي مولده مباشرة بطاعون يعرفه أهل التاريخ بطاعون عزونه فربته جدته لأمه الفقيهة الصالحة السيدة أم البنين فعلمته الصلاة وأدخلته الكتاب ولقنته بعض أساسيات العلوم الإسلامية .

وعندما ناهز سن الشباب انتظم في سلك جامعة القرويين وأخذ عن كبار أساتذتها الذين ذكرهم بكل اعتزاز في كناشه،وفي عام ٨٧٣هـ خرج لأداء فريضة الحج ماراً على عجل بالقاهرة وأزهرها الشريف وعلماء ذلك الوقت الأجِلَّة ليعود بعد سنين ثلاث ليقضي بها سنة كاملة معلماً ومتعلماً على عادة الأفاضل في كل وقت وتعرف أثناء ذلك بشيخه أحمد بن عقبة الحضرمي رضي الله عنه فسلك على يديه وأخذ عنه الطريقة الشاذلية ولزمه إلى أن حان وقت العودة إلى الديار فذهب التلميذ زروق إلى شيخه الكبير يطلب الإذن والنصيحة فأجابه لذلك وزوده بنصيحة ثمينة هي قوله :

سلم لسلمي وسر حيث سارت

واتبع رياح القضا ودر حيث دارت

ثم قفل الشيخ زروق راجعاً إلى المغرب العربي واستمرت المراسلات بين الشيخ الحضرمي وتلميذه زروق الذي قضى فترة مباركة في مدينة أوجله ولازال مسجده بها وكذلك داره،ومدح مدينة أوجلة وأهلها بقصيدة يقول مطلعها :

أواجلة قوم يسوقون عيرهم

إلى مصر والسودان في طلب التبر

ثم ارتحل لمصر وكانت شهرته كأحد أكبر المتصوفين وفقهاء المالكية قد سبقته فبلغ عدد من حضر درسه بها أحياناً ستة الآف طالب علم .

ثم استقر أخيراً بمدينة مصراته بليبيا سنة ٨٨٦هـ يتولى تعليم أهلها ويجالس تلاميذه في ربوعها لايخرج منها إلا إلى الحج أو إلى بعض شأنه الخاص إلى أن انتقل إلى جوار ربه بها وبها دفن في١٨/ صفر / ٨٩٩هـ،٢٧/ ١١/ ١٤٩٣ م في خلوته وعمره ٥٤ عاماً،وبلغت مؤلفاته ما يربو عن السبعين مؤلفاً تحفل بها أرفف المكتبة الإسلامية في تخصصاتها المختلفة جُلها طبع ومنها مالا يزال مخطوطاً كشرحه لرسالة ابن أبي زيد(١) .

(٢) الشيخ عبد الواحد ابن عاشر :

هو الأبر التقي الصالح الشيخ الحاج عبد الواحد بن أحمد بن على بن عاشر الأنصاري نسبا الأندلسي أصلاً الفاسي منشأً وداراً .

وصفه الشيخ محمد ميارة بقوله : كان رحمه الله عالما عاملاً ورعاً عابداً متفننا في علوم شتى . اهـ.

أخذ على الشيخ أحمد اللمطي والشيخ أبي العباس الكفيف وأبي عبد الله التلمساني والقصار وأبي الفضل ابن أبي العافية، وغيرهم .

كان رضي الله عنه ذا معرفة بعلم الأصول والفقه والتوقيت والتعديل والحساب والفرائض وعلم المنطق والبيان والعروض والطب والقرآءآت وتوجيهها بالنحو والتفسير والإعراب والرسم والضبط وعلم الكلام .

مؤلفاته : منظومة المرشد المعين الضروري من علوم الدين،وشرح على مورد الظمآن،وشرح على مختصر خليل،ورسالة في عمل الربع المجيب،وغيرها .

توفي يوم الخميس ٣ / ذي الحجة / ١٠٤٠ هـ(٢).

(٣) الشيخ المكي بن عزوز:

هو فقيه تونس وعلامتها الحسيب النسيب الشيخ أبو عبد الله محمد المكي ابن الفقيه الصوفي الشيخ مصطفى (ت ١٢٨٢ هـ) بن محمد بن عزوز.

---

(١) انظر ترجمته في : جذوة الاقتباس (٦١)، الضوء اللامع (١ / ٢٢٢)، شجرة النور (٢٦٧).

(٢) انظر ترجمة في : اليواقيت الثمينة(٢٣٠) ، خلاصة الأثر (٣ / ٦٩)، سلوة الأنفاس (٣ / ٢٧٤).

وهو رجل سخي عليّ الهمة كريم السجايا أشرف والده الكريم على تربيته وتعليمه مباشرة فصار من أعلام زمانه،ومن أساتذته أيضاً الشيخ عمر بن الشيخ،والشيخ بشير التواتي الذي كتب له بالإجازة .

اضطلع رضي الله عنه بدور كبير رغم وجوده في تونس في دعم الجهاد الليبي ضد الإيطاليين :

كان للشيخ محمد المكي عناية عميقة بالأسانيد واهتمام برواية كتب العلم عن رجالها أما في الأدب لغة ونثراً وشعراً وحفظاً لعيون الأدب العربي فقد كان يضرب به المثل،تولى الفتوى باقليم نفطة بتونس ثم تركه وانتقل إلى تونس العاصمة واجتمع عليه طلاب العلم فيها .

مؤلفاته جلها رسائل ، منها : رسالة السيف الرباني،ورسالة في الربع المجيب،ورسالة الفائدة المهمة في سبب اختلاف الائمة،ورسالة ممتازة بعنوان هيأة الناسك في أن القبض في الصلاة هو مذهب الإمام مالك (ط) أحدثت صدى كبيراً في حياته وبعدها ونوه بها العلماء وسنكثر في بحثنا هذا الاستشهاد بها .

ارتحل للمشرق واستقر بالأستانه بتركيا معلماً مرشداً واعظاً ناصحاً مربياً، وبقي بها إلى أن توفي في صفر / ١٣٣٤ هـ = ١٢ / ١٩١٥ م (١).

(٤) الشيخ أحمد العلوي :

هو العارف بالله المربي المجاهد الشيخ أبو العباس أحمد بن مصطفى العلوي وربما نطقت العلاوي المستغانمي نسبة إلى مستغانم بالجزائر،ولد بمستغانم سنة ١٢٨٦هـ وبها نشأ.

وبمستغانم التقى بشيخه محمد البوزيدي المعروف بحمو فأخذ عنه السلوك بالطريقة الدرقاوية ولازمه واقتدى به ففتح الله له وصار من كُمَّل أهل الله علماً وعملاً وسارت مؤلفاته وتصانيفه وأشعاره في الغرب والشرق مشيدة بفضلة صادحة بعلو كعبه .

ساح رضي الله عنه في جل المدن والقرى الجزائرية يربي المريدين ويؤسس الزوايا،وكذلك في تونس، وخرج رضي الله عنه للحج فمر بطرابلس بليبيا وكان يرغب الإقامة بها غير أن الله لم ييسر ذلك وزار بيت المقدس وذهب إلى الشام .

---

(١) انظر ترجمته في : فهرس الفهارس (٢ / ٢٢٩و١ / ٤)، إيضاح المكنون (١ / ٦٠).

رجع الشيخ العلوي إلى الجزائر فهدى الله تعالى به الآلاف من المسلمين وكماً غير قليل ممن استطاعت جحافل المنصرين استمالتهم للشرك إبان الاستعمار الفرنسي للجزائر .

أصدر جريدة لسان الدين سنة ١٩٢٢م التي نجحت في التصدي لكثير من المخططات الفرنسية الظالمة ثم أوقفها بعد أربع سنين ليصدر جريدة البلاغ سنة ١٩٢٦م .

أخذ عنه السلوك في حياته المباركة ما يقارب المائة ألف عدا من أخذ عن أتباعه من بعده

اشتد به المرض في سنة ١٩٣٢م ولازمه إلى أن انتقل إلى جوار ربه الكريم سنة ١٣٥٣هـ ١٩٣٤م، ودفن رضي الله عنه في زاويته بمستغانم في الجزائر .

مؤلفاته : له الكثير من المؤلفات منها :تفسير للقرآن الكريم لم يتمه اسمه البحر المسجور في تفسير القرآن بمحض النور (ط)،وكتاب المنح القدوسية (ط)،وكتاب القول المعروف (ط)،وديوان من نظمه (ط)،ولباب العلم في تفسير سورة النجم (ط)،ومباديء التأييد، والأبحاث العلوية في الفلسفة الإسلامية،ورسائل غاية من الإحاطة وكمال المعرفة[١].

(٥) الشيخ علوي المالكي :

هو العلامة الصالح المبارك الشيخ علوي بن عباس بن عبد العزيز بن عباس بن عبدالعزيز بن محمد المالكي المكي الحسني الإدريسي

ولد رضي الله عنه بمكة المكرمة في ١٣٢٨ هـ حفظ القرآن الكريم وانتظم بمدرسة الفلاح بمكة المكرمة طالباً للعلم عن أكبر أساتذتها وتخرج منها في ١٣٤٦ هـ وكان كلف بالتدريس بها وهو طالب ففعل وفي ١٣٤٧ هـ ، أُجيز بالتدريس في المسجد الحرام بل قضى في التدريس كل عمره،واجتهد في طلب العلم فحصله عن كوكبة كثيرة العدد وافرة العلم من كبار العلماء من المكيين والمجاورين ممن يزخر بهم المسجد الحرام كما روى عن جملة من كبار أعلام أهل الحديث والأثر ، وله أسانيد ومرويات جمعها ابنه السيد العلامة الدكتور محمد في « العقود الؤلؤية وإتحاف ذوي الهمم العلية »

واشتهر بالعلم والفضل فكان يلقى الدروس العامة في الحرمين الشريفين إضافة للدروس

---

(١) انظر ترجمته في : مقدمة المنح القدوسية للمؤلف (ط)، الأعلام (١ / ٢٥٨).

المتخصصة ومحاضراته برابطة العالم الإسلامي وفي الإذاعة السعودية، واتسع نشاطه الاجتماعي في البلد الحرام ليشمل الصلح بين المتنازعين والمشاركة في لجان الحرم الشريف المتعددة.

وله شعر رائق وبحوث قيمة ورسائل وفتاوى.

من مؤلفاته : شرح على بلوغ المرام،شرح على عمدة الأحكام،فيض الخبير في أصول التفسير،فتح القريب المجيب على تهذيب الترغيب والترهيب وغيرها[١].

وتوفي رضي الله عنه بمكة المكرمة في ٢٥ / صفر الخير / ١٣٩١ هـ.

(٦) الشيخ أبو القاسم التواتي:

هو القدوة البركة الفاضل الفقيه الشيخ أبو القاسم بن محمد بن أحمد التواتي، ولد بواحة الكفرة بليبيا سنة ١٩١٠ م ونشأ بها،وبها حفظ القرآن الكريم ودرس على والده بعض كتب الفقه والنحو وتوفي والده فاضطرته ظروف الاستعمار الإيطالي للهجرة فاتجه جنوبا إلى تشاد ،ومنها إلى السودان حيث أستقر ببلدة الفاشر إماماً بزاوية صوفية بها.

اتصل رضي الله عنه بطرق صوفية عدة منها الطريقة الصوفية الميرغنية المنسوبة للشيخ محمد عثمان الميرغني(ت ١٢٦٨هـ) حيث تردد على زاويتها هناك لطلب العلم فدرس بها الحديث والبلاغة والفقه على اساتذة منهم :

الشيخ الشريف عبد الرحمن كراد،والشيخ الامام عبد الواحد الفلاني،والشيخ يوسف الترابي،والشيخ النجيب البرقاوي،والشيخ الوداوي،والشيخ أحمد زيدان مصطفى الجكني الشنقيطي.

ثم رجع لتشاد حيث استقر ببلدة (فايا) لمدة سبعة عشرة عاماً متصدراً فيها للافتاء والنظر لقضايا الدماء والمواريث وغيرها،ثم عين من قبل الحكومة الفرنسية معلما للغة العربية والنظر في القضاء الشرعي فمكث في ذلك لمدة ثمانية أعوام ثم رجع سنة ١٩٦٠م إلى الكفرة.

وله من المؤلفات :

الإسعاف في الطلب فقه مالكي (ط)،و كتاب مرجع المشكلات فقه مالكي (ط)،كتاب

---

(١) انظر ترجمته في :مقدمة كتاب مجموع فتاوى ورسائل، نفحات الإسلام من البلد الحرام لابنه السيد الدكتور محمد علوي المالكي(ص٦) ، هديل الحمام في تاريخ البلد الحرام للبلادي (٣/ ٨١٧)،تشنيف الأسماع بشيوخ الإجازة والسماع للشيخ محمود سعيد ممدوح (٣١٢).

رفع الالتباس عن الناس (خ)،وكتابه تنبيه الأولاد فيما كان عليه السلف الصالح والأجداد، تراجم (خ) ،كتاب بستان الفكر (خ).

وتوفي رضي الله عنه في الجغبوب بليبيا في شعبان ١٤٠١ هـ،٦ / ١٩٨١ م وبها دفن[١].

ولنا بعد هذه المقدمة أن نحدد **منهجية التصنيف السلوكي في التأليف الفقهي المالكي** فنقول متوكلين على الله سبحانه مصلين على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أنها :

تتمثل في الآتي :

أولاً : التوسع في نقل أقوال وأراء فقهاء المذهب

وهي صفة ملازمة لجل من كتب في الفقه من أهل السلوك بل تكاد تكون هي الأظهر ومرد ذلك لسعة اطلاعهم وحرصهم على النفع وخلو صدورهم من أمراض المعاصرة وأحسادها وأحقادها وآفاتها إذ لم يوصفوا قط بها،حتى قال قائلهم :

ألم يعلموا أنّ الطريق كناية

عن العمل الجاري إلى وفق شرعنا

وذبح النفوس الضاريات بمدية

من الخلف حتى لا تميل إلى الخنا

وزهد عن الدنيا وعن شهواتها

وعمن يراها أكبر الهم مقتني

ومن شواهد ذلك :

١ ـ يقول الشيخ أحمد زروق في مقدمة شرحه للرسالة [١] : وآثرت النقل من كتب المتأخرين لما لهم من الجمع والتحرير واخترت جماعة مشهورة لها بحث ليرجع إليها فيما فيه من معقول ومنقول ويحقق في كل مفهوم ومعقول . اهـ.

٢ ـ كما يقول الشيخ محمد المكي بن عزوز في كتابه هيأة الناسك ص ٤ : قال العلامة البناني في حاشيته الشهيرة بعد ذكره استحباب القبض في الفريضة والنافلة مانصه : وهو قول مالك في رواية مطرف وابن الماجشون عنه في الواضحة وقول المدنيين من أصحابنا

(١) شرح زروق للرسالة لازال مخطوطاً في مجمله وإن طبعت منه بعض أبواب متفرقة مما لا يمكننا من ذكر أرقام الصفحات والأجزاء وما في حكمها .

واختاره غير واحد من المحققين منهم اللخمي وابن عبد البر وأبو بكر بن العربي وابن رشد . وابن عبد السلام وعده ابن رشد في مقدماته من فضائل الصلاة وتبعه القاضي عياض في قواعده ونسبه في الإكمال إلى الجمهور وكذا نسبه لهم الحفيد ابن رشد . انتهى .

ويواصل ابن عزوز : وسلمه الشيخ الرهوني مع دقة انتقاده خلف البناني، وكذلك الفقيه كنون ومثل ما للبناني للشيخ ابن الحاج الفاسي محشي ميارة ثم ختم البناني كلامه بذكر الدليل الحاسم لمادة الخلاف بما يفهم منه إلغاء القول بالسدل رأساً وسنذكره في محله في الباب الثالث ثم رواية مطرف وابن الماجشون ذكرها ايضا ابن عرفه والمواق والقلشاني في شرحه على ابن الحاجب والثعالبي في جامع الأمهات وقد أفصح ابن رشد عن معنى الاستحباب المروي عن مالك في الواضحة بأنه يكره ترك القبض في الفريضة والنافلة وكتاب الواضحة من أمهات المذهب لابن حبيب،وأما القرينان وهما أشهب وابن نافع فرواية أشهب عن مالك في العتبية أنه لا بأس بوضع اليمنى على اليسرى فى الصلاة المكتوبة والنافلة كما نقله ابن أبي زيد القيرواني في النوادر وأبو الحسن في شرح المدونة والشيخ أحمد زروق . اهـ.

٣ ـ ويقول الشيخ محمد المكي بن عزوز أيضاً في كتابه هيأة الناسك ص ٥ : قال الشيخ علي الأجهوري فعل القبض أفضل من تركه وقد جزم باستحبابه العلامتان محققا متأخري المالكية بالديار المصرية على العدوي محشي الخرشي والأمير في مجموعه وسيأتي ماقالاه وسيأتي أيضا كلام القاضي عبد الوهاب وابن الحاجب وابن الحاج والشبرخيتي وعبدالباقي والخرشي وسالم السنهوري والدردير والدسوقي والصاوي وغيرهم من الذين اعتمدوا سنية القبض في الصلاة مذهباً بلا شبهة . اهـ .

٤ ـ ويقول الشيخ محمد المكي بن عزوز أيضاً في كتابه هيأة الناسك ص ٢٦ : أسماء الراوين لهذه السنة ـ يقصد القبض ـ والمقيدين لها من ذوي المذهب المالكي الذين نقلنا عنهم على اختلاف عباراتهم والافتتاح بالإمام مالك مثل إخوانه الأئمة ثم بعده في مذهبه أشهب وابن نافع ومطرف وابن الماجشون وابن وهب وابن زياد وابن عبد الحكم وابن حبيب وسحنون وعبد الوهاب وابن عبدوس وابن أبي زيد وابن بشير وابن عبد البر واللخمي وابن رشد وحفيده أبو الوليد وأبو بكر بن العربي وعياض وابن الحاجب والقرافي وأبو الحسن والقرطبي وابن عبد السلام وابن عرفه وابن الحاج والمواق والقلشاني وابن جزي والقباب

والثعالبي والسنوسي واحمد زروق والسنهوري والأجهوري والعياشي والخرشي والشبرخيتي وعبد الباقي ومحمد ابنه والمسناوي والبناني والسوداني والعدوي والدردير والدسوقي والصاوي والأمير وحجازي وعليش وابن حمدون والسقطي .

ثانياً : نقد المادة العلمية :

إن غزارة المادة الفقهية الاسلامية وتنوع مصادرها بشرياً وجغرافياً إضافة لاحتمال الخطأ والسهو في النقل كل هذا أوجب عليهم وهم أرباب السلوك بما فيه من التزام تام بالحق وسبله وميل أصيل ومكتسب للتأمل والنظر اخضاع مابين أيديهم من مادة للنقد والتحليل مع الرجوع للأصول والمراجع لتأكيد النقول ومناقشتها .

عليك بما يرضى الإله من التـقى

ولا تختلط طول الحياة بذي نكر

وكن تابعاً قوماً صفاتهم

تجل إذا عدت عن الحدّ والحصر

فتابعهم ياطالب الخير تنتهي

إلى قصدك المأمول من سبل البر

ونختار من شواهد ذلك،مايلي :

١ ـ قال الشيخ أحمد زروق في معرض بحثه لقضاء الفوائت في شرحه للرسالة : وقد سمعت شيخنا أبا عبد الله محمد بن يوسف السنوسي ثم التلمساني يذكر أن النهي عن ذلك منصوص فحققته عليه فقال : نص عليه القرافي في الذخيرة،ولم أقف عليه . اهـ.

٢ ـ كما قال في مسألة أخرى في شرحه للرسالة : وإنما اعتمد فيه ابن الحاجب على ابن شاس وابن شاس ذكره عن ابن العربي وابن العربي لم يسم قائله . اهـ.

٣ ـ ويقول الشيخ أحمد العلوي في كتابه نور الإثمد ص ٩ : من المعلوم أنَّ مالكاً لا ينقل حديثاً في موطأه إلا وقصده العمل به لا لمجرد الحكاية . اهـ.

٤ ـ ويقول الشيخ أحمد العلوي أيضاً في كتابه نور الإثمد ص ١٤ : نقل عن سحنون حالة كونه متأسفاً على عدم ملاقاته لمالك ذاماً للفقر والعوائق قال : كنا عند ابن القاسم

وكتب مالك تأتيه من المدينة المطهرة،وصل سحنون عند ابن القاسم في عام اثنين وسبعين ومائة وتوفي مالك عام تسعة وسبعين ومائة وعلى هذا ليس ابن القاسم ممن حصل على آخر أفعال الإمام وأقواله حتى نتوهم أنه أطلعه على مالم يطلع عليه غيره،نعم قيل أنه زار الإمام وحضر لوفاته وحتى لو فرضنا أنه أسر له مسألة السدل دون غيره مع أنها ليست من قبيل السر حتى يختص بها ابن القاسم دون غيره . اهـ.

ثالثاً : تصويب مفهوم بعض الآراء :

كثيرا مايتناقل المجتمع فى موروثاته الثقافية آراءاً ومفاهيم يضفي عليها طابعاً دينياً وتكتسب مع التقادم شرعية وقداسة لا تتناسب مع روح الإسلام الداعية للعلم والنظر والتجديد ،لذا نجد عند أهل السلوك ميلاً لتصويب هذه الآراء بما أثر عنهم شخصياً،أو بما خطته أياديهم في مؤلفاتهم،ومن ذلك :

١ ـ يقول الشيخ أحمد زروق في شرحه للرسالة : الدعاء لا يتقيد بوجه ولا ينحصر فيه ولا يتعين على وجه الاستحباب . اهـ.

٢ ـ ويقول الشيخ أحمد العلوي في كتابه نور الإثمد ص ٦ : تتبع المتأخرون دووايين المتقدمين كالصحاح العشرة وغيرها حرفاً حرفاً فلم يجدوا ولو حرفاً واحداً يأذن بمشروعية السدل في الصلاة للنبي ﷺ لأن الدعوة تحتاج للبيان والدليل المعلوم يتعذر وجوده . اهـ

رابعاً : احترام الاختلاف بين رجال المذهب الواحد :

الإنسان ذلك السر الإلهي العظيم جبله خالقه سبحانه على التفكر والتدبر وميزه عن غيره بعقل وإدراك، تمايز فيهما كل إنسان عن الآخر لذا لا يستغرب أن تتعدد الاجتهادات ووجهات النظر فيما لانص فيه أو فيما طرأ على عصر ولم يكن في سابقه،فحرص فقهاء أرباب السلوك دائماً لما أوجبته مدرسة السلوك من أدب واحترام على منتسبيها على احترام هذه الاختلافات وتقديرها،وهو مانلحظ عكسه أحيانا عند غيرهم حتى أفتى بعض أهل الفقه المالكي ومنهم الونشريسي في المعيار بأنه لا تجوز

شهادة فقيه في فقيه .

يقول الشيخ أحمد العلوي في كتابه نور الإثمد ص ١٥ : قال المواق عن ابن عبد البر لاوجهة لكراهة وضع اليد اليمني على اليسرى في الصلاة لأن الاشياء أصلها الإباحة ولم ينه الله ورسوله عن ذلك فلا معنى للكراهة قاله المسناوي،ثم قال : وهذا لو لم يأذن النبي به فكيف وقد صح عنه فعله والحث عنه،وبهذه المثابة يوجد في علماء المذهب من لغي الكراهة بالمرة ظنا منه أن المصلي لايقصد بذلك إلا متابعة النبي ﷺ كما هو الواقع في الغالب وذلك كعياض وابن عبد السلام وابن رشد وغيرهم فانهم نظموا وضع اليد على اليد في المندوبات . اهـ

خامساً : عدم التعصب لمذهب دون الاخر :

اتسع صدر الإسلام الرحب وأفقه الواسع ليستوعب الإنسان في كل زمان ومكان فنشأت في ظل هذه القيمة العظيمة الاجتهادات وتعددت المذاهب وكلها فروع حق بسقت من شجرة الشريعة الغراء طيبة الجذر والساق والثمر،ورغم التعصب والتزمت لمذهب دون غيره أو رأي دون سواه الذي ألقي ولا زال يلقي بظلاله الكئيبة المقيتة على المسلمين جراء جهل بعض ائمتهم وقياداتهم إلا إننا نجد أهل السلوك حريصين دائماً على احترام هذه التعددية المقدسة مستشهدين بأقوال رجال المذاهب مطنبين في مدحهم والترحم والترضي عنهم .

يقول الشيخ أحمد العلوي في كتابه نور الإثمد ص ١١ : أجمع علماؤنا على أن المشهور ماكثر قائله، والراجح ماقوي دليله، وكل منهما صادق على ماسبق فالذي أوجب الأرجحية للقبض على السدل ما قدمناه من النصوص، والموجب للأشهرية أيضاً كثرة القائلين به من علماء الدين ونعني بالعلماء المجتهدين، فلو نظرنا في مذهب مالك بعين الإنصاف لوجدنا سنية القبض فيه ظاهرة كشمس على علم بما قدمناه من النصوص وغيرها إلا رواية ابن القاسم، والكل يعلم أن الإمام مالك هو إمام الائمة نعم فهو كذلك أخذ الشافعي عن مالك وهو يقول بسنية القبض وأخذ الحنبلي عنه وهو يقول بسنيته أيضاً وتقدم أبو حنيفة النعمان قبلهم وهو يقول بسنيته وفي بعض المذاهب المندرسة من الثمانية عشر – على القول بحصرها – من يقول بالوجوب . اهـ.

سادساً : الاستشهاد بأقوال أهل السلوك وارائهم :

من الطبيعي جداً أن يتأثر رجال المدرسة الواحدة أحدهم بالآخر خصوصاً وأننا نجد في كنانيشهم وطيات كتبهم ونصوص إجازاتهم اتصال أسانيدهم وبحوثهم ببعضهم البعض الأمر الذي جعل المادة العلمية لكل منهم موجودة ميسورة يسهل من قبل أيهم الرجوع إليها والاستشهاد بها سيما وأن وحدة المنهج وتطابق الفكر أوجدت نتاجاً وقناعة باقوال وآراء كل منهم عند الاخر،فمن ذلك :

١ ـ ينقل الشيخ أحمد زروق في شرحه للرسالة عن عياض قوله في تسنيم القبر : والمعروف من مذهبنا جواز تسنيمه وهو السنة لأنه صفة قبره عليه الصلاة والسلام وقبور الصحابة من بعده .ا هـ.

٢ ـ كما يذكرقول الشيخ أبي حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) : كل من يتبرك به في حياته يجوز التبرك بقبره بعد موته. اهـ

سابعاً : ذكر البدع والرد عليها :

البدعة تهلكة مؤدية إلى غضب الله تعالى وعذابه،قال رسول الله ﷺ :« إياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » (١) .

ولا خلاف بين علماء المسلمين بكل فرقهم ومذاهبهم في ذمها والتحذير منها،بيد أن الخلاف بينهم كان ولا يزال في تعريفها وتوصيف مايحتمله لفظ البدعة وما لايحتمله،وتعددت أقوالهم تبعاً لذلك مابين أقصى التسامح إلى أبعد التشديد والمغالاة،كما أخضعها بعضهم لأحكام الشريعة الخمسة، فمنها الواجب كتدوين القرآن الكريم،والمحرم كالمكوس والضرائب،والمندوب كصلاة التراويح،والمكروه كالزيادة في المندوبات مثل جعل زكاة الفطر عشرة آصع بدلاً من صاع واحد،والمباح كاتخاذ المناخل والغرابيل .

قال رسول الله ﷺ على ما أخرجه الحاكم مرفوعاً : « ماظهر أهل بدعة إلا أظهر الله فيهم حجته على لسان من شاء من خلقه » .

---

(١) رواه أبو داود والترمذي والحاكم وأحمد وابن حبان والدارمي وابن ماجه .

ويلاحظ أن أهل السلوك مافتئوا يهتمون بهذا الأمر ويولونه عنايتهم ولنا أن نأخذ الشيخ أحمد زروق كنموذج لهم وهو الذي أطلق عليه لشدته في الحق وحرصه على الالتزام بجادة المحجة البيضاء التي ليلها كنهارها : (محتسب العلماء والأولياء).

١ ـ ومن ذلك قوله في شرحه للرسالة : فأما تكليف أهل الميت وعمل المبائت والمحازن والصوفيات ونحوها فبدعة لا أصل لها . اهـ.

٢ ـ وقوله في كتابه عدة المريد الصادق ص ٢١٨ : والله – ياولي – لو رأيتهم في صلاتهم ينقرونها وفي صفوفهم لا يقيمونها يجعل أحدهم بينه وبين صاحبه مقدار مايدخل فيه ألف شيطان فاذ جئت لتسد ذلك الخلل تراهم قلبوا وجوههم،فان غفلت ووطئت سجادة أحدهم لكمك لكمة أينما وجد منك وقد يكون فيه حتفك . اهـ .

العلماء وتولية المناصب الشرعية من لا يصلح لها بطريق التوارث وجعل المستند في ذلك كون المنصب كان لأبيه وهو في نفسه ليس بأهل . اهـ

٣ ـ وفي الباب نفسه يقول أبو القاسم بن محمد بن أحمد التواتي في كتابه الإسعاف بالطلب ص ٢٥٩ : كل بدعة تناولتها قواعد التحريم وأدلته من الشريعة كالمكوس والمحدثات من المظالم والمحدثات المنافية لقواعد الشريعة كتقديم الجهال على . . .

ثامناً : التبشير والتيسير دون التنفير والتعسير :

المرجع في هذا الأصل العظيم من أصول الإسلام هو القرآن الكريم القائل : ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ** ﴾ (١)،وقول الرسول الكريم ﷺ : « يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا » (٢) .

ولا ريب أن سماحة الإسلام ووسطيته وأفقه الواسع تلزم أهل الحل والعقد بالتيسير

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٥.

(٢) رواه الشيخان وأحمد والنسائي.

مالم يكن في الأمر معصية وهو منهج الرسول ﷺ الذي ماخير بين أمرين إلا اختار أيسرهما »(١)

لذا نجد عند أهل السلوك أخذاً جلياً واضحاً بهذا المنهج التيسيري بعيداً عن غلو الغالين وتفريط المفرطين،ولنا أن نستشهد في ذلك ببعض نصوصهم في تصانيفهم الفقهية، وفي ذلك :

١- يقول الشيخ أحمد زروق في شرحه للرسالة عن الصائم المريض : فيفطر ويصلي جالساً فان دين الله يسر . اهـ.

٢- ويقول أيضاً في شرحه للرسالة في الخلاف في الصلاة على قاتل نفسه والمقتول حداً: حرمة الإسلام تقتضي الصلاة عليه وإن كان عاصياً . اهـ.

٣- ويقول أيضا في شرحه للرسالة في خاتمة مبحث الحج : وقد أتيت في هذا الباب بما أمكنني متيسراً واهتممت ببيان الصفات وأحكامها واقتصرت بل قصدت فيما وراء ذلك لطوله وعدم مسيس الحاجة إليه . اهـ.

تاسعاً : وضوح التصوف :

ونعني بالتصوف مقام الإحسان الذي أشار إليه الرسول ﷺ بقوله : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (٢).

فالإحسان مراقبة الله تعالى في الأقوال والأفعال والمنشط والمكره والقبض والبسط والعطاء والمنع وكل أحوال العبد وهو أصل السلوك وسنامه وعمود أمره، وتجد روح التصوف ومباحثه واضحة جلية في تصانيف أهل السلوك الفقهية، وليس هذا غريباً فلا يستطيع الإنسان أن يخلع عنه معتقداته كما يخلع ثوبه كما لا يستطيع أن يكون إلا هو نفسه،ومن هنا نجد جميعهم إذا ما ذكر التصوف أو تعرضوا لبعض مباحثه تناولوه صوفياً بقلم الممارس

(١) رواه الشيخان ومالك وأبو داود.

(٢) رواه البخاري وغيره.

الذي نظر وخبر، وفكر الذي عاش التجربة بطولها وعرضها فجاءت تصانيفهم عميقة دقيقة معبرة صادقة .

ولنا في ذلك أن نستشهد بالآتي :

١ـ يقول الشيخ أحمد زروق في شرحه للرسالة : وقد تقدم أن المصلي مأمور بالطهارة فلا يجوز له أن يتقرب إلى الله إلا ببدن طاهر وثوب طاهر في بقعة طاهرة . اهـ.

٢ـ ويقول الشيخ أحمد زروق أيضاً في شرحه للرسالة : الصوم لا يمكن أن يكون لغيره تعالى فلا يدخله رياء،وقيل الصوم لي : يعني من صفتي لأنه تعالى لا يطعم والصائم كذلك فهو متخلق بأخلاق الربوبية . اهـ .

٣ـ ويقول الشيخ أيضاً في شرحه للرسالة عن ليلة القدر : إن الله أخفاها كالوسطى من الصلوات ووليه في المؤمنين والحسنة الموجبة والسيئة الموجبة وساعة الجمعة . اهـ.

٤ـ ويقول في شرحه للرسالة أيضا : قال القرافي بتحريم قديد الروم وجبنهم وصنف فيه الطرطوشي مرجحاً تحريمه، ووجدت كرامة له في ذلك أن من كانت له مهمة يأتي إلى قبره زائرا ويعاهد الله ألا يأكل جُبن الروم فإن الله يقضي حاجته وخصوصاً رفع الحمى الدائمة، كذا سمعته من بعض أهل العلم يحكيه عن تجربة أهل الإسكندرية . اهـ.

٥ـ ويقول الشيخ عبد الواحد بن عاشر في كتاب مبادئ التصوف وهوادي التعرف في منظومته المسماة المرشد المعين :

وتوبة من كل ذنب يجترم

تجب فوراً مطلقاً وهي الندم

بشرط الاقلاع ونفي الاصرار

وليتلافى ممكنا ذا استغفار

وحاصل التقوى اجتناب وامتثال

في ظاهر وباطن بذا تنال

فجاءت الأقسام حقاً أربعه

وهي للسالك سبل المنفعه

يغض عـــينيـــه عن المحـــارم
يكف ســمـــعـــه عن المـــآثم
كـغـيـبـةٍ نميـمـةٍ زور كـذب
لسانه أحرى بترك ماجلب
يحـــفظ بطنـه من الحـــرام
يترك مـاشـبـه باهتـمـام
يحـفظ فـرجـه ويتـقي الشـهـيـد
في البطش والسـعي لممنوع يريد
ويوقف الأمـور حـتى يعلمـا
مـا الله فـيـهن به قـد حكـمـا
يطهـر القلب من الريـاء
وحـسـدٍ وعُـجـبٍ وكل داء
واعلم بأن أصـل ذي الآفـات
حب الرياسـة وطـرح الآتي
رأس الخطايا هو حب العـاجله
لـيس الـدوا إلا فـي الاضـطرار لـه
يصـحب شـيخـاً عـارف المسالك
يقـيـه في طريقـه المهـالك
يـذكـــره الله إذا رآه
ويوصل العـبـد إلى مـولاه
يحـاسب النفس على الأنفـاس
ويزن الخـاطر بالقـسـطاس
ويحـفظ المفـروض رأس المال
والنـفل ربحـه بـه يـوالي

ويكثر الذكر بصفو لبه
والعون في جميع ذا بربه
يجاهد النفس لرب العالمين
ويتحلى بمقامات اليقين
خوف رجا شكر وصبر توبه
زهد توكل رضا محبه
يصدق شاهده في المعامله
يرضى بما قدر الإله له

عاشراً : ذكر الآداب الواجب مراعاتها في الأعمال الشرعية :

اهتم أهل السلوك بالآداب أيما اهتمام حتى قال قائلهم : من حرم الاداب رد إلى سياسة الدواب، وقال محمد بن على القصاب : التصوف أخلاق كريمة ظاهرة في زمان كريم من رجل كريم مع قوم كرام. اهـ، وسئل أبو محمد الجريري عن التصوف فقال : التصوف الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دني . اهـ ، وجعلوا لكل حال أدباً ولكل وقت أدباً.

يالائمي في حب قومٍ تجسمت
كمالاتهم حتى بدت كضيا الفجر
دع اللوم وانظر منصفاً تَرَ أنهم
هم الغيث في هذا الوجود الذي تدري
ترى منظراً يزري بدنياك كلها
وهل يذكر المرجان في جانب الدر
ترى أعيناً منها المدامع قد همت
لما عندها من خشية المنعم البر
ترى أرجلاً صفت لخدمة ربها
ترى ألسنا تقتات من دسم الذكر

ترى صبوة والله قد فتت بها
كبودهم وهي الحياة مدى الدهر
ترى لطف أخلاقٍ بها قد تفردوا
ترى أوجها تختال في حضرة البدر
فهم معشر لين المهاد عليهمُ
حرام إلى أن يلحقوا روضة القبر
فكن ياكثير اللوم مع من أحبهم
تفز من شديد الهول في موقف الحشر

وحرصوا رضوان الله عليهم على أن تقارن الآداب الأعمال ولا يستغرب هذا فالسلوك لو تأملت وجدته آداباً جمعت فصار المتلبس بها سالكاً، بل لا يتصور أصلاً انفصالهما عن بعضهما البعض .

وليس بعامر بنيان قوم
إذا أخلاقهم كانت خرابا

ومن شواهد ذلك :

١ـ يقول الشيخ أحمد زروق في شرحه للرسالة : التحفظ في زمن الصوم لحرمته فيحفظ لسانه من الغيبة وجوباً ومن فضول الكلام ندباً وجوارحه من الانبساط إلى مالا حاجة به وإن امرؤ شاتمه فليقل : إني صائم اني صائم إني صائم، قال علماؤنا : يقول ذلك في نفسه لنفسه زجراً لها عن الوقوع في ذلك . اهـ .

٢ـ ويقول الشيخ أيضاً في شرحه للرسالة : ومن وجوه تعظيم هذا الشهر المبارك أن الله سبحانه أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان وجعل فيه ليلة القدر التى هي خير من ألف شهر قيامها وصيامها فيجب على كل ذي إيمان ويقين ويتعين على كل من له تلبس بأعمال المتقين أن يقدر هذا الشهر قدره ويوفيه من التعظيم والاحترام حقه ويتحفظ فيه من كل شيء يكرهه الشارع صلوات الله عليه وسلامه كان واجباً أو مندوباً .

حادي عشر : الاستشهاد بقصص المتصوفين والصالحين :

يركز أهل السلوك على ذكر قصص المتصوفين والصالحين في تصانيفهم ويهتمون بسرد قصصهم أيما اهتمام،فقال قائلهم :

أسرد حديث الصالحين وسمهم
فبذكرهم تتنزل الرحمات
واحضر مجالسهم تنل بركاتهم
وقبورهم زرها إذا ماتوا

قال الأستاذ أبو القاسم الجنيد القواريري (ت ٢٩٧ هـ) :

– الحكايات جند من جنود الله تعالى تقوى بها قلوب المريدين .

– قيل : فهل لك في ذلك شاهد ؟

– فتلى قوله تعالى : ﴿ **وَكُلاً نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِن أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَانُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ** ﴾ (١) .

لذا زخرت مصنفاتهم بهذه القصص يؤدبون بها الأنفس ويهذبون بها الطباع ويضربون بها الأمثلة ويقوون بها العزائم،ومن ذلك :

١- ينقل الشيخ أحمد زروق في شرحه للرسالة عن ابن العربي قوله : رأيت بعض زهاد بغداد والكوفة إذا دعا لأهل الدنيا صلوا وتكلموا،وبعض الخطباء يكذب حينئذ والشغل عنهم واجب . اهـ.

٢- ويقول الشيخ أيضاً في شرحه للرسالة : سمعت شيخنا أبا عبد الله القوري رحمه الله يقول : إن منذر بن سعيد البلوطي خطب في الاستسقاء مرة فأكثر أن يقول سلام عليكم حتى التفت الناس إليه فقال : ﴿ **سَلامٌ عَلَيكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفسِهِ الرَّحمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (٢) .

قال : فبكى الناس ولا رجعوا إلا بالمطر،وكذلك فعل مرة أخرى أكثر أن يقول : يا أيها الناس فلما التفتوا إليه قال : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ واللهُ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ** ﴾ (٣)،فكان كذلك . اهـ.

---

(١) سورة هود آية ١٢٠.

(٢) سورة الانعام آية ٥٤.

(٣) سورة فاطر آية ١٥ – ١٦.

٣ـ ويقول الشيخ في شرحه للرسالة أيضاً : وكان بعض الصالحين لايقرب بيته نهاراً في رمضان خشية أن يتشوش أو يشوش على عياله وهو باب من الورع والتحفظ قد يحمد للاحتياط وقد لا لمخالفة السنة .

٤ـ ويقول الشيخ أحمد العلوي في كتابه المنح القدوسية ص ١٤ : بلغنا عن شيخ شيوخنا مولاي العربي الدرقاوي رضي الله عنه أنه كان سائحاً مع جماعة الفقراء وإذ بمغن يقول : راحت الهائجة وخلت الفائجة فذهب إليه الشيخ ووقف عنده وهو مطرق الرأس والفقراء متعجبون من فعله حتى فرغ المغني من كلامه فأعطاه الشيخ ماكان عنده من الدراهم وهو مسرور بما سمع منه، فقال له بعض الفقراء فكيف بك تسمع ياسيدي مالا يحل استماعه؟

فقال الشيخ رضي الله عنه : وكيف لا أستمع من ينشدني عن الهائجة التي ذهبت وتركت الفائجة ؟ وأشار بذلك إلى نفسه حيث ذهبت عنه واستراح من معالجتها . اهـ.

* * *

السلوك في شرح القاضي عبد الوهاب

رغم أنني لم أجد في كتب من ترجم له التي اطلعت عليها من يقول بانتساب القاضي عبد الوهاب البغدادي إلى مدارس السلوك خصوصاً وأنه عاش بين العراق ومصر وهما حوتا أكبر وأهم هذه المدارس تلك الحقبة بل أننا نجد في شعره مالا يشجعنا على مجرد التفكير في انتسابه لهذه المدارس واقرأ إن شئت قوله :

ونائمة قبلتها فتنبهت
فقالت تعالوا واطلبوا اللص بالحد

فقلت لها إني فديتك غاصب
وماحكموا في غاصب بسوى الرد

خذيها وكفي عن أثيم ظلامة
وإن أنتِ لم ترضَي فألفاً على العد

فقالت : قصاص يشهد العقل أنه
على كبد الجاني ألذ من الشهد

فباتت يميني وهي هميان خصرها

وباتت يساري وهي واسطة العقد

فقالت: ألم أخبر بأنك زاهد

فقلت بلى مازلت أزهد في الزهد(١)

بل إننا على العكس نجد نقداً شديداً لاذعاً لبعض الممارسات في هذا الشأن ومن ذلك قوله في ص ١٥٠ من مخطوط شرحه للرسالة مانصه :

البدعة الكبرى ما يشاهده عند مثل هذا من كثير ممن يدعي لنفسه العبادة والتقدم في الزهد وينسب إلى التصوف والفقر من اضطراب التمييز وقلة الخشوع وأنواع الرقص والإيماء باليد والرأس والضرب على الصدر وماينسب إليه فيه بين التواجد الذي يثمر الوقوع على الحاضرين حتى يؤدي ذلك إلى الضحك والطنز والاستهزاء ومن أعجب مارأيت من (........) (٢) والمكاره والغلط نسبه كثير من المخالفين إلى أصحابنا جواز الغناء وتعليم ألحانه . اهـ.

إلا أننا نجد في ثنايا شرحه للرسالة نصوصاً لا تختلف بل تتطابق مع مباحث شراح الرسالة من أهل السلوك مما ذكروه في مؤلفاتهم ويعتبر من خصائص منهجية التصنيف السلوكي عندهم،ولك أن تقارنها بما مر ذكره من أقوالهم لترى ذلك جلياً ظاهراً، مما يظهر أثر منهجية التصنيف السلوكي في التأليف الفقهي المالكي حتى عند غير أهل السلوك وهو يؤيد مانذهب إليه دائماً من أن الفقه هو جسد الشريعة والسلوك هو روحها وإنه من المحال فصل أحدهما عن الآخر وأن هذه الحقيقة تأبى إلاّ أن تفرض نفسها على من أنصف فشاء ومن أجحف فأبى ولعل ما سنذكره من مباحث في السلوك ذكرها القاضي عبد الوهاب في شرحه .

---

(١) وفيات الاعيان لابن خلكان ج ٣ ص ٢٢٠.

(٢) كلمة فى الأصل غير مقروءة.

للرسالة يزيد عدد شواهدنا على ذلك .، ومن ذلك [١] :

الورع

وهو مقام أفرده كثير من أهل السلوك بأبواب تفيض في الحديث عنه ومنهم السراج الطوسي الذي افتتح كلامه عنه بقوله : مقام الورع مقام شريف [٢] .

بل أنهم اجتهدوا في ذلك ليصلوا إلى آفاق في الورع سامية كريمة حتى قال أبو سعيد الخراز : الورع أن تتبرأ من مظالم الخلق من مثاقيل الذر حتى لايكون لأحدهم قِبلك مظلمة ولا دعوى طلبة . اهـ.

ولا يقف الورع عندهم على ترك المتشابه خيفة الوقوع في الحرام بل عدوا مجرد الانشغال عن الله سبحانه خروجاً عن مقتضياته،قيل للشبلي : يا أبا بكر ما الورع ؟.

فقال : أن تتورع ألا يتشتت قلبك عن الله عز وجل طرفة عين . اهـ.

وفي ص ١٤١ يتكلم القاضي عبد الوهاب عن الورع ومجافاة المتشابهات التي قد تقود إلى مالا يرضى الله سبحانه فيقول :

والورع عند الاشتباه أولى وأحوط لقوله دع مايريبك إلى مالا يريبك [٣] ،ولقوله الحلال بين والحرام بين ومشتبهات من وقع حول الحمى يوشك أن يقع فيه [٤] . اهـ.

المعاملات

سئل شاه الكرماني عن معنى قوله عز وجل : الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين [٥] ، فقال : الذي خلقني فهو يهديني إليه لا

---

(١) سنذكر أرقام صفحات شرح القاضي عبد الوهاب للرسالة وفق الترقيم المدون بخط اليد على صفحات المخطوط .

(٢) اللمع للسراج الطوسي ص ٧٠ .

(٣) رواه أحمد والنسائي والطبراني والخطيب البغدادي .

(٤) رواه الشيخان وغيرهما ولم أجد عين اللفظ الذى ذكره القاضى عبد الوهاب،وانما قريب منه ما وجدته عند الترمذى ولفظه عنده: قال رسول الله ﷺ : «الحلال بين والحرام بين وبين ذلك أمور متشابهات لايدري كثير من الناس أمن الحلال هي أم الحرام فمن تركها استبرأ لدينه وعرضه فقد سلم ومن واقع شيئا منها يوشك أن يواقع الحرام كما أن من يرعى حول الحمى أوشك أن يواقعه ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه» .

(٥) سورة الشعراء آية: ٧٨، ٧٩، ٨٠ .

غيره وهو الذي يطعمني الرضا ويسقيني المحبة وإذا مرضت بمشاهدة نفسي فهو يشفيني بمشاهدته والذي يميتني عن نفسي ويحييني به فأقوم به لا بنفسي والذي أطمع ألا يخجلني يوم ألقاه بنظري إلى طاعتي وأعمالي ثم أفتقر إليه بكليتي . اهـ .

ففي ص ١٤٧ يتكلم القاضي عبد الوهاب عن ما اصطلح عليه أهل التصنيف السلوكي باسم المعاملات بين الخلق والخالق بل وكأنه أحدهم نجده يفرق على أسلوبهم بين الهداية والمغفرة وموقع الذنب فيقول : الهداية أفضل من المغفرة ولأنها قد تعرى من الذنوب والمغفرة لا تكون إلا عن ذنب . ا هـ.

الصحبة

وفي ص ١٤٨ يتكلم في الصحبة وهي من أهم ركائز السلوك وأظهر صفات منهج أهله ويوجب هجر أهل السوء ونبذهم لما قد يجر من التأثر بهم ويعدد سبل ذلك بعناية الصاحب والمصحوب،وهو عين مايقوله أهل السلوك ومنهم الشيخ جابر أحمد معمر الذي يقول في كتابه منهل الوراد ص ٢٣٧ :

عن المرء لا تسل وسل عن قرينه
فكل قرين بالمقارن يقتدي
إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم
ولا تصحب الأردى فتردى مع الردي
فمن عاشر الفساق صار أسيرهم
ومن المحقق أنه لايهتدي

كما قالوا رضوان الله عليهم : خير عيش المرء مع إخوان صدق إن نسي ذكروه، وإن ذكر أعانوه وإن غفل نبهوه وإن أناخ عليه الدهر أخذوا بيده فانقذوه فأولئك هم إخوان الصفا على سرر متقابلين . اهـ.

وقال يوسف بن الحسين لذي النون : من أصحب ؟.

فقال : من لا تكتمه شيئاً يعلمه الله منك . اهـ.

وقال : سهل التستري : اجتنب صحبة ثلاثة أصناف من الناس الجبابرة الغافلين والقراء

المداهنين والمتصوفة الجاهلين . اهـ.

فيقول القاضي عبد الوهاب : من كان بهذه الأوصاف من الفسق وقبح الاعتقاد وارتكاب الكبائر والمحرمات فواجب هجرانه واجتنابه أدباً له وغضباً لله تعالى وليردعه ذلك ويكسره فيعود إلى ترك ما هو عليه، ولأن ذلك أقل ما يجب إذا لم يقدر على ردعه موعظة أو عقوبة ولئلا ينسب في مخالطته وعشرته إلى مثال طريقه والرضا بها وفي الحديث المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل [١]، لأنه قد يكون الإنسان نقي القلب فلا يأمن أن يستمع بعض بدعه فيتعلق قلبه بشيء مما سمع فكيف بما علق بقلبه وكان يقال لا يمكن زايغ القلب من أن يدانيك وإذا كرهت مناظرتهم ومحادثتهم فكلامهم ومخالطتهم أولى بالإنكار، والآثار في ذلك كثيرة ولا غيبة فيمن كان بهذه الصفة لأن ذمهم مأمور به وقد روى: قولوا في الفاسق مافيه ليعرفه الناس [٢]، وكذلك في النكاح والمخالطة لأن في ذلك نصحاً للمشار عليه وميلان إلى مصلحته وحظه لأن مخالطتهم قد تؤدي إلى أن يضل بهم ولأن الدين من الكفاءة عندنا وكذلك في الشهادة يلزم من عنده علم من حال الشاهد المبتدع الضال باعتقاده أن يعلم الحاكم به لأن ذلك يتعلق به حق الله تعالى في ألا يقدم على الحكم بإباحة الدماء والفروج بشهادة، من لايقبل شهادته ولأن ذلك إذا لزم في الفسق الذي طريقه الفعل فبأن يلزم في فسق الاعتقاد أولى وقد روي منع مجالستهم والسلام عليهم ومناكحتهم ومخالطتهم وهجرتهم عن جماعة من السلف رضوان الله عليهم . اهـ.

---

(١) رواه الترمذي كما رواه أبو داود بلفظ : «الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل» .

(٢) لم أجد هذا اللفظ بعينه وانما أخرج الطبراني وابن حبان فى الضعفاء وابن عدي وابن أبي الدنيا بألفاظ متقاربة أن رسول الله ﷺ قال : «أترِعُون عن ذكر الفاجر اهتكوه حتى يعرفه الناس اذكروه بما فيه حتى يحذره الناس» .

الصمت

وفي ص ١٤٨ يتكلم القاضي عبد الوهاب عن الصمت معدداً محاسنه مشيداً بمكانته في صفات المسلم الحسنة،وبالنظر إلى منهج أهل السلوك نجد ذلك يحتل مكاناً بارزاً عندهم،يقول الشيخ محرم العمروسي في تائية السلوك :

ألم يعلموا أن الطريق كناية

عن العمل الجاري على وفق شرعنا

وذبح للنفوس الضاريات بمدية

من الخلف حتى لاتميل إلى الخنا

وزهد عن الدنيا وعن شهواتها

وعمن يراها أكبر الهم مقتني

وجوع وصمت واعتزال وفكرة

بها حضرة الرحمن تدخل آمنا

ويكاد ينطق الشيخ عبد الوهاب البغدادي بعين ذلك نثراً إذ يقول :

في الصمت راحة كثيرة من أشياء كثيرة من الحرام منها الكذب ومنها الغيبة ومنها الخطل والغي والهدر ومنها اللغو الذي لا محصول له ومنها الاحتراز مما لعله أن يصيب الإنسان مما لافائدة له فيه فإذا قال خيراً كان قول الخير أولى لأنه يأمن معه من كل ذلك ويزداد كسب الحسنات ورفع الدرجات . اهـ.

ذم الغضب

وفي ص ١٤٩ يذم القاضي عبد الوهاب الغضب ويصف هيأته ويعدد مضاره ويشبهه بالخمر لما يلحق صاحبه من الندم إذا ما أفاق منه،ولنا أن نعقد مقارنة بين كلامه وكلام نفيس في الموضوع نفسه للشيخ جابر أحمد معمر وهو من أقطاب أهل السلوك الذي يقول : اتباع الشهوات يجعل العزيز ذليلاً وذلك لأن القلب أمير البدن والبدن مطيع لأوامره ونواهيه فإذا غلبت الشهوات عليه صار الأمير مأموراً وانعكست القضية فصار الملك أسيراً أو مسخراً في يد كلب ثائر عدو قاهر ولهذا كان الشخص إذا أطاع داعية الشره والشهوات يرى نفسه في

النوم ساجداً بين يدي خنزير أو حمار واذا أطاع الغضب يرى نفسه ساجداً بين يدي كلب(١) . اهـ.

ألا يتطابق ذلك وقول القاضي عبد الوهاب :

الغضب تغير الطباع وتشويش التمييز ويزول معه كثير التحصيل ويحسن للإنسان الهجوم على مالا يستحسنه عند سكون حدسه وهدوء نفسه فهو من الذم كمعنى السكر ولذلك مايلحق الإنسان اذا رضي ويسكن غضبه الندم عند كثرته مما يفعل في غضبه وتعذر منه كما يلحقه ذلك في السكر . اهـ.

الغيبة

الغيبة من الصفات المذمومة التي طالما اهتم أهل السلوك بتربية مريديهم على التخلي حتى صار ذلك معلوماً بالتواتر عندهم،قال الشيخ أحمد زروق : في الكتاب العزيز ذمها وتشبيهها بأكل لحم الميت وأعظمها مايترتب عليه حكم كأن تكون بقذف ونحوه أو مايترتب عليه ثلم كالأفعال المخلة بالمروءة والدين ثم ما يكون صفة لشخص كالقرع والعرج والعور ونحوه مما يكتفي في تعريفه بدونه ثم مايكون راجعاً لمتعلقاته كبيتة وكلبه ومحله ودابته ونسبته وحسبه وثوبه إلى غير ذلك (٢) . اهـ.

وفي ص ١٤٩ يتكلم القاضي عبد الوهاب عنها،فيقول :

الإنسان كما يكره أن يغتابه غيره فكذلك يكره أن يغتاب هو غيره وكما يحب لنفسه الخير وألا يكون خائناً ولا يؤذي ولا يمتهن ولا يظلم فكذلك يفعل في غيره وكما لايحب أن يقذف حرمه ولا أن يهتك منه فكذلك يحبه لغيره. اهـ.

---

(١) منهل الوراد،جابر أحمد معمر ص ٢٦٠ .

(٢) مختصر النصيحة الكافية،أحمد زروق ص ٢٣ .

سماع الباطل

وقد اهتم أهل السلوك بالسماع وأفردوا له مباحثاً ووصفوه بأقوال تشرحه وتوضح الفرق بين سماعهم وهو حق وسماع الباطل،قال الشبلي : السماع ظاهره فتنة وباطنه عبرة فمن عرف الاشارة حل له استماع العبارة والا فقد استدعى الفتنة وتعرض للبلية . اهـ.

وقال السراج الطوسي : لا يصح السماع للمريد حتى يعرف أسماء الله تعالى وصفاته حتى يضيف إلى الله ماهو أولى به ولا يكون قلبه ملوثاً بحب الدنيا وحب الثناء والمحمدة ولا يكون في قلبه طمع في الناس ولا تشوف إلى المخلوقين . اهـ.

وفي ص ١٤٩ يقول القاضي عبد الوهاب شارحاً لما جاء في الرسالة من قوله : ولا بسماع شيء من الملاهي والغناء، ذاماً للسماع المذموم المحتوى على معصية الله سبحانه من قول أو مايؤدي إلى معصية أو يهيج لها فيقول :

ذلك لأنه من الممنوع في الشرع فانه يؤدي إلى هتك المروءة بترك الدين وإلى شرب الخمر والسخف والخرق ولا فرق عندنا بين ماكان بآلة أو بغير آلة في المنع . اهـ.

الفكرة

وفي ص ١٥٢ يتكلم القاضي عبد الوهاب عن التفكر والاعتبار وفائدتها ومزاياها وفي ذلك يتطابق تماماً مع مدرسة السلوك،قال ابن عطاء الله السكندري (ت ٧٠٩ هـ) في الحِكَم : مانفع القلب شيء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة،وقال الحارث المحاسبي الفكر في قيام الأشياء بالحق،وقال بعضهم : الفكر ماملأ القلوب من حال التعظيم لله عز وجل،وقال القاضي عبد الوهاب :

« أحسن الوعظ وأبلغ التحذير، وقد قال الله تعالى في التنبيه على وجوب الفكرة والاعتبار بالذين أخذوا بذنوبهم وقدم لهم الجزاء على أعمالهم : ﴿ **فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ** ﴾... إلى قوله : ﴿ **فَاعْتَبِرُواْ يَا أُولِي الأَبْصَارِ** ﴾ (١) . اهـ.

---

(١) ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّواْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُواْ يَا أُولِي الأَبْصَارِ ﴾، سورة الحشر: آية ٢ .

الإكثار من الطعام

وفي ص ١٥٧ يذكر القاضي عبد الوهاب آفات الإكثار من الطعام وأثره على السالك إذ يثبطه عن العبادة ويلحق به دناءة الأخلاق وسقوط النفس وهو يسير على مايقوله أرباب السلوك ومنهم الشيخ جابر أحمد معمر، قال : أصول ماتداوي به النفس خمسة أشياء :

١ – تخفيف المعدة من الطعام والشراب ... الخ (١) . اهـ.

وكان بعضهم يقول : لو يباع الجوع في السوق لاشتريته . اهـ.

وقال عيسى القصار : من أدب الجوع أن يكون الفقير معانقاً للجوع وقت الشبع حتى إذا جاع يكون الجوع أنيسه . اهـ.

ويقول القاضي عبد الوهاب : إذا أكثر من الطعام لم يبق موضع للماء إلا على وجه يضر، ولأنه تثور عليه نفسه فكذلك إذا أكثر من شرب الماء وكذلك منهما جميعاً لم يبق موضع للنفس إلا على كلفة ومشقة وفي ذلك اضرار به ولأن ذلك دال على الشرة وسقوط النفس ودناءة الأخلاق لو لم يكن فيه ضرر فكيف والضرر بين فيه واذا كان كذلك وجب القسم على ماذكرنا وبذلك ورد الحديث عن النبي (وآله انه قال حسب من أدب لقمات تسد جوعه فام كان لابد فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس (٢) . اهـ.

الذكر

ويتكلم القاضي عبد الوهاب عن الذكر وهو من أهم سمات مباحث أهل السلوك حتى قال قائلهم :

والذكـــر أعظم بـاب أنت داخلـه
لله فـاجـعل له الأنفـاس حُـراسـاً

---

(١) منهل الوراد، جابر أحمد معمر ص ٢١٧ .

(٢) لم أجد الحديث بعين اللفظ الذي ذكره وإنما أخرج الترمذي أن رسول الله ﷺ قال : « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه وإن كان لابد فاعلاً فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه » . اهـ.

وقال الأستاذ القشيري في رسالته : الذكر عنوان الولاية ومعيار الوصلة وعلامة صحة البداية ودلالة ضياء النهاية . اهـ.

وقسموه إلى ثلاثة أصناف : فذكر الحروف بلا حضور باللسان، وذكر الحضور في القلب، ومعنى الحضور أن يصدق قلبه لسانه ويعتقد صحة ماتلفظ به وذكر الغيبة عن الحضور في المذكور وهو ذكر السر .

وفي الموضوع نفسه يقول القاضي عبد الوهاب في ص ١٦٢ : الذكر بالقلب وهو إحضار الإنسان قلبه الخوف والخشوع وتصوره اطلاع ربه عليه في سره وعلانيته وعلمه بجميع أحواله ومتصرفاته وأنه لايخفى عليه خافية ولا يساتر عنه مستور فلذلك كان الذكر بالقلب أفضل من الذكر باللسان . اهـ.

ويقول أيضاً في الصفحة نفسها : الإنسان إذا أكثر من ذكر الله جدد خشوعه وقوى إيمانه فازداد نفاسة وبعد عن قلبه الغفلة وكان إلى التقى أقرب وعن المعاصي أبعد . اهـ.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وافق الفراغ من انجازه بحمد الله تعالى

ليلة النصف من شعبان / ١٤٢٣ هـ

الأحد ٢٠ / ١٠ / ٢٠٠٢ م

في مدينة درنه - ليبيا

أهم المــــراجــــع

١ – ابن خلكان: وفيات الأعيان د. إحسان عباس طبع دار الثقافة بيروت – لبنان .

٢ – ابن عذارى المراكشي البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب تحقيق ومراجعة ج.س. كولان و إ. ليفي بروفنسال الطبعة الثانية ١٩٨٠ م طبع دار الثقافة بيروت – لبنان .

٣ – أبو القاسم محمد بن أحمد التواتي: الإسعاف بالطلب مختصر شرح المنهج المنتخب على قواعد المذهب مذهب الإمام مالك الطبعة الأولى المطبعة الأهلية بنغازي ليبيا ١٩٧٥ م .

٤ – أحمد الرفاعي: البرهان المؤيد جمع وتحقيق ابراهيم الرفاعي الناشر دار آل الرفاعي حجازة قبلي قوص قنا – مصر مطابع دار التراث العربي – مصر ١٩٩١ م .

٥ – أحمد زروق: شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني مخطوط .

٦ – أحمد زروق: قواعد التصوف صححه ونقحه محمد زهري النجار، راجعه د.علي معبد فرغلي، طبع ونشر دار الجيل بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٢ م .

٧ – أحمد زروق: قواعد التصوف، تحقيق وتقديم الشيخ عثمان الحويمدي طبع المطابع الموحدة تونس الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .

٨ – أحمد زروق: عدة المريد الصادق، تحقيق د. الصادق عبد الرحمن الغرياني الطبعة الأولى ١٩٩٦ م الناشر مكتبة طرابلس العلمية العالمية .

٩ – أحمد زروق: مختصر النصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية، الناشر مكتبة النجاح طرابلس – ليبيا .

١٠ – أحمد القطعاني: مجالس الفقراء، الناشر مكتبة مكناس طرابلس ليبيا الطبعة الأولى ٢٠٠٠ م .

١١ – أحمد بن مصطفى العلوي: المنح القدوسية طبع دار ابن زيدون بيروت لبنان الطبعة الأولى ١٩٨٦ م تحقيق سعود القواص .

١٢ – أحمد بن مصطفى العلوي: نور الإثمد في سنة وضع اليد على اليد في الصلاة، الطبعة الثانية المطبعة العلوية الجزائر ١٣٤٤ هـ .

١٣ – جابر أحمد معمر: منهل الوراد وبهجة الإرشاد لمن أراد طريق الرشاد على منهاج طريق السادة البكرية الجودية الجنيدية الخلوتية، مطبعة الجبلاوي الترعة البولاقية القاهرة – مصر.

١٤ – عبد الرحمن بن خلدون : تاريخ ابن خلدون، طبع ونشر مؤسسة الأعلمي بيروت – لبنان ١٣٩١ هـ –١٩٧١ م.

١٥ – عبد الرحمن الدباغ: معالم الايمان، تحقيق محمد الأحمدي ومحمد ماضور طبع ونشر مكتبة الخانجي القاهرة ـ مصر .

١٦ – عبد الرحمن بن خلدون: تاريخ ابن خلدون مؤسسة الأعلمي بيروت طبع ١٩٨٨ م .

١٧ – علوي بن عباس المالكي الحسني: مجموع فتاوى ورسائل جمع وترتيب السيد محمد بن علوي المالكي الحسني خادم العلم الشريف بالبلد الحرام، مطابع الرشيد المدينة المنورة ١٤١٣ هـ .

١٨ – القاضي عياض : ترتيب المدارك، تحقيق أحمد بكر محمود نشر دار مكتبة الحياة بيروت لبنان .

١٩ – مجد الدين الفيروز آبادي: القاموس المحيط، عالم الكتب بيروت .

٢٠ – محمد بن أحمد مياره المالكي: الدر الثمين والمورد المعين شرح المرشد المعين على الضروري من علم الدين، طبع دار الفكر .

٢١ – محمد تاج الدين بن عثمان الحضيري: اسئلة فقهية وأجوبتها نظماً، تقديم وتحقيق د . حسن عبد الرحمن البركولي الحضيري: الطبعة الأولى ١٩٩٧ م مطبعة النسر الذهبي القاهرة ـ مصر .

٢٢ – محمد بن محمد مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الفكر.

٢٣ – محمد المكي بن عزوز: هيئة الناسك في أن القبض في الصلاة هو مذهب الامام مالك طبع مطبعة روشن ١٣٢٧ هـ .

٢٤ – يوسف بن سعيد الصفتي: حاشية الصفتي على ابن تركي .

فهرس

* * *